مناحم بيجين
التوراة والبندقية

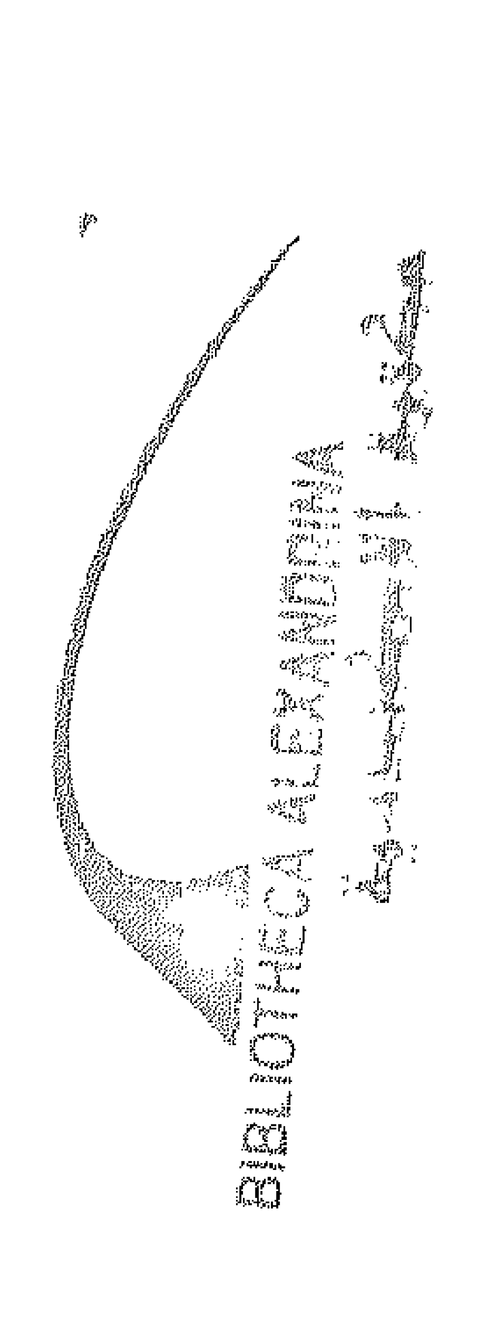
تأليف : فيكتور مالكا

اهداءات ٢٠٠١
اللواء/ محمد ضياء الدين زهدي
القاهرة

الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة
رقم ٧٢٨

مناحم بيجين
التوراة والبندقية

تأليف : فيكتور مالكا



فهرس

صفحة

مناحـــم بيجـــين
التوراة والبندقيـــــة

بقلم : فيكتور مالكا

ان النفور من شيء يساعد على تحليله
بصورة أفضل بيد أن التعاطف معه
هو وحده الذى يساعد على فهمه .

(اندريه سينجريد)

لا يمكن انجــاز عمل كبير بدون رجال كبار ، وقد أصـــبح هؤلاء كذلك لانهم أرادوه لأنفسهم .

(شارل ديجول)

تولدت فكرة هذا الكتاب من ذكرى واستياء . ولنبدأ بالذكرى : لقد انفعل المؤلف انفعالا عارما عندما كان طفلا يعيش فى مملكة الفقر والضوء المتمثلة فى الجيتو الغربى ، لدى قرائته لكتاب « ثورة اسرائيــل » لمناحم بيجين حيث وجد أن تاريخ شعبه يعد أيضا تاريخ المقاومة والشـــجاعة . ومنذ ذلك الحين ظل المؤلف يكن لبيجين التقدير والاعجاب ، وأن لم يوافقه على آرائه السياسية .

أما عن الاستياء فقد جاء نتيجة الاقوال المخالفة للصواب التى تسرعت الصحف ونشرتها عن مناحم بيجين غداة الانتخابات الاسرائيلية التى اجريت فى مايو سنة ١٩٧٧ بينما كان الرجل يتأهب لتولى زمام أمـور اسرائيــل ومستقبلها .

وقد أراد المؤلف تحليل تلك الأفكار المســـبقة ومكافحتها فى بعض الأحيـــان .

ها هو اذن ملف بيجين . ولا يتمثل الهدف هنا فى كتابة قصــة حياة الرجل ولكنه فى رسم صورة لشخصية رجل كان على موعد مع التاريخ .

فما هو لغز هذا الرجل ؟ ومن أين يستمد سر قوته ؟ وهل ســـيقود شعبه نحو الحرب الاسرائيلية ــ الغربية الخامسة التى يعلم الجميع أنهـا ستسفر عن نتائج وخيمة ، أم سيكون الرجل الذى اختاره التاريخ ليوقع على أول معاهدة سلام تبرم بين اسرائيل وجاراتها ؟ .

ومن ذا الذى يستطيع أن يتوقع شيئا اليوم بينما المسرح السياسى فى الشرق الأوسط يثبط همة جميع التحاليل ويبدو خصيبا بالمتناقضـات ويمكن ان يخبىء الشىء ونقيضه على السواء ؟

ولا يدعى مؤلف هذا الكتاب أنه سيرد على جميع الاسئلة التى تطرح اليوم على دولة اسرائيل فى مواجهة العالم العربى . ومع ذلك فأنه قد يسهم فى التعريف بدرجـة اكبر برجل من أكثر الرجـال جاذبية على المسرح السياسى الاسرائيلى ربما سيترك بصماته على التاريخ فى الغد ..

« فيكتور مالكا »

الفصل الأول
من هو مناحم بيجين

« يشبه التاريخ معرضا للوحات قليل منها أصلى ومعظمها تقليد »

(اليكسى دى توكفيل)

(من كتاب : « نظام الحكم القديم والثورة »)

السابع عشر من مايو ١٩٧٧ . اقتربت الساعة من الحادية عشرة مساء وخلت شوارع اسرائيل من المارة . ان الاسرائيليين قابعون فى ديارهم ، منتبهين أمام أجهزة التليفزيون لمعرفة النتائج الأولى للانتخابات .. واخذ هنوك سمث ، المتخصص فى شئون الانتخابات ، يقلب أوراقه بعصبية وهو يعلن بلهجة المهاجرين الأمريكيين : « تدهور واضح لحزب العمل الذى فقد ثمانية عشر مقعدا ، حصل الليكود على اربعة وأربعين مقعدا وداشن على خمسة عشرة مقعدا . ومن المؤكد أن مناحم بيجين سيشكل الحكومة الجديدة » .

انها العاصفة : أهم انقلاب سياسى عرفته اسرائيل انقلاب من القاع — ثورة انتخابية فجائية ؟ غير متوقعة . أذهلت الجميع حتى صانعيها انفسهم .

اهتز عالم . وأنتهت بصورة مؤلمة خمسون عاما من هيمنة العماليين ، كانت قد أنتهت بالمزج بين الدولة والحزب فى علاقة تشبه الملكية ..

وفى الساعة الواحدة والنصف صباحا ، ظهر شيمون بريز الذى لم يحالفه الحظ بالفوز بمنصب رئيس الوزراء فى مقر الحزب وهو منهك القوى وصاح قائلا : أصبنا بنكسة خطيرة . ولكنها ارادة الامة .

وانطفأت الأنوار فى مقر حزب العمل الذى يقع فى المبنى رقم ١١٠ شارع هياركون فى تل أبيب بعد أن تجاهله الصحفيون . وانتقلت الفرحة الى الجانب الآخر من المدينة والى الطرف الآخر من التاريخ ..

ضج شارع كنج جورج بالهتافات . تدفقت الجماهير بلا انقطاع على **« قلعة زيف »** مقر الليكود وهى تهتف : **« بيجين بيجين »** وبدأ بيجين وقد

فقد بعضا من وزنه (فقد كان يتماثل للشفاء بعد أزمة قلبية كادت أن تؤدى بحياته وتحرمه من نصره) مرتديا سترته ورباط عنقه على البــاب وهو يبتسم تلك الابتسامة التى لن يفقدها ابدا .

فبعد تسعة وعشرون عاما من المعارضة ، ذاق أخيرا نصرا طال رفضه كما طال انتظاره . ورفع ذراعه مشهرا علامة الانتصــار وهى حركة محببة الى قلبه ــ وقال وسط الهتافات والتصفيق « يمثل هذا اليوم تحولا فى تاريخ الشعب اليهودى والحركة الصهيونية » .

وعلى أجهزة التلكس فى السفارات وصالات التحرير توالت البرقيــات الهامة .. وحملت هذه البرقيات اسم رئيس الوزراء الاسرائيلى الجــديد وطرحت التساؤلات فى العالم كله من أقصاه الى أقصاه .. وبدأ أخــراج الملفات القديمة من الأرشيف وسؤال الخبراء : من هو مناحم بيجين ؟ وفى واشنطن ، التى يمكن اعتبارها أقرب الضواحى السياسية للقدس ، كانوا يعرفونه بالكاد .. فلم يلتق الرئيس جيمى كارتر ببيجين من قبل (رغم أن هذا الأخير طلب الاجتماع معه ، لدى مروره بالعاصمة الأمريكية فى بداية عام ١٩٧٧) كذلك وزيره سيروس فانس . وحتى هنرى كيسنجر ، الذى قابل كثيرا من الشخصيات فى اسرائيل أثناء جولاته المستمرة ، لم يكن لديه الوقت للاجتماع بزعيم المعارضة ، ومما لا شك فيه أنه كان يعتبر حــزب الليكود كان مهمــلا ..

ان الرحالة الدبلوماسى الأمريكى لم يتبادل مع بيجين ســوى عبارات قصيرة خلال حفل أستقبال لم يترك لكسينجر ذكرى طيبة .

كسينجر : أنك الرجل الذى يريدنى ان اذهب الى الجحيم ؟

بيجين : انك مخطىء يا ســيدى الوزير . انى أتمنى أن تذهب الى الجنة ولكنى آمل أن تستحق ذلك .

ولم تكن باريس اكثر حظا . بل أن صحفى الاذاعة كانوا يتلعثمون وهم ينطقون باسم بيجين « واعلنت احدى اذاعات الأقاليم لمستمعيها أن السيد « محمد بيجين » فاز فى الانتخابات .. ، ولم يكن متبقيا لها سوى أن تضيف كلمة « الحمد لله » . ولا يشكل أصدقاء الليكود السياسيون فى فرنسا عددا غفيرا ، وأن كان بيجين قد احتفظ ببعض العــلاقات الوطيدة منذ الأيام البطولية لجماعة أرجون والمقاومة اليهودية .

وكان جاك سوستيل وحده هو الذى أرسل برقية تهنئة غداة الانتخابات التشريعية الى الرجل الذى كتب له مقدمة كتابه « ثورة اسرائيل » وهذا شيء قليل اذا قيس بالدولية الاشتراكية » ذات الاعتبار التى كان أعضاء حزب العمل يتفاخرون بالانتماء اليها .. (ومقابل ذلك ، لم تتأخر ردود الفعل العربية . وكانت التعليقات بعيدة عن الرقة تماما ، مثلما كان متوقعا. فقد وصف راديو دمشق مناحم بيجين بأنه « عنصرى وارهابى » وصرح محمود رياض أمين عام الجامعة العربية قائلا : لقد أدخل الارهاب فى المنطقة » وأضاف كريم خلاف عمدة رام الله : « أن الحرب الاسرائيلية العربية الخامسة فى طريقها الى الاندلاع » .

ومن الغريب أن أنور السادات الذى كنا ننتظر تعليقه ، قد تحدث بلهجة أقل حدة .. ان الرئيس المصرى لا يرى أى اختلاف بين رابين وبيجين فهما من وجهة نظره سواء . فهل كان السبب فى ذلك هو حرصه على الاحتفاظ ببعض فرص انعقاد مؤتمر جنيف الذى تتمناه مصر كثيرا مثلها فى ذلك مثل الولايات المتحدة ؟ لقد قدم معلق اسرائيلى تفسيرا أكثر تنوعا اذ كتب يقول صرح الرئيس السادات عام ١٩٧٣ بأنه قرر شن حرب الغفران لكى يجعل حزب العمل يدفع ثمن موافقته على المبادىء التوسعية . ويكرر التاريخ نفسه بصفة دائمة . ولكن الثمن سيرتفع . مع « بيجين » .

من هو مناحم بيجين ؟ سرعان ما سنعرفه . فقبل أن يتولى مهام منصبه كشف رئيس الوزراء عن طابعه الخاص غداة الانتخابات .. اذ كانت أول زيارة يقوم بها ، زيارة لمستعمرة « قدوم » فى الضفة الغربية لنهر الاردن حيث بارك أنصار « اسرائيل الكبرى » أعضاء منظمة « جوش ايمونيم » (كتلة الايمان) وأجاب بيجين باستهزاء على صحفى كان يسأله عما اذا كان سيضم الضفة الغربية لنهر الاردن ، قائلا : « لا يمكن أن نتحدث عن ضم أرض تعد جزءا لايتجزأ من اسرائيل » وتمتمت سيدة من جماعة جوش ايمونيم قائلة : « ها هو قد جاء عهد المسيح وقالت الصحافة الأمريكية التى وصفت بيجين « بالحماس الشديد » : لقد جاء « عهد الصقور » .. ونشرت مجلة نيويورك على غلافها عنوانا يقول : « يوم الصقور » ... أما صحيفة التايمز فقد تحدثت عن أنتصار الصقور المتطرفة .. وهكذا حددت هاتان الصحيفتان ، اللتان لم تتهما أبدا بمعاداة اسرائيل الاتجاه العام .

ومن الذى لا يخشى مناحم بيجين ؟ ذلك الارهابى ، زعيم منظمة أرجون وشبح المقاومة المعادية لبريطانية ، ومؤيد القضية اليهودية والمناضل من أجل اقامة « اسرائيل الكبرى » ؟ سرعان ما تكونت الأسطورة وتبلورت السمعة . ونطق بالحكم . ولن يكون من السهل معارضة التيار . وتعين على بيجين أن يوفد اثنين من أفضل مستشاريه هما صمويل كاتز ، الى الولايات المتحدة ، وايلى بن العازر ، الى باريس ، فى مهمة تستهدف طمأنة العاصمتين واعادة الأوضاع الى حالتها الطبيعية ..

أن الحزب الذى تولى السلطة فى اسرائيل ظل فى صفوف المعارضة طوال ربع قرن دون أن ييأس ويرجع انتصاره الى صناديق الاقتراع وحدها .

كما يرجع الى التفتت البطىء الذى أصاب مجتمع حزب العمل الذى تآكل من الداخل نتيجة تفشى الفضائح والخدع . ويدين ليكود بهذا الانتصار — وهذا مؤكد بالأرقام — للقوى الحية فى الأمة ، وللشباب الذى تحول عن طبقة سياسية زال نفوذها ، وللعمال الذين صدمهم انتشار الاختلاسات والرشاوى واستغلال المناصب وأخيرا الى السفارديم (اليهود الشرقيين) الذين ملوا الوقوف بلا نتيجة على أبواب السلطة ..

أن الرجل الذى تولى السلطة فى اسرائيل ليس بذلك الشبح الذى تصوره الرسوم الكاريكاتورية العربية ، ولا هو « روبسبير » (رجل الثورة الفرنسية) كما تصوره قصص وأساطير حزب الماباى . فلا شك فى أنه رجل يمينى ومن المؤكد كذلك انه وطنى وربما كان متصوفا بيد أنه رجل ظل طوال حياته يحترم قوانين الديمقراطية .. وظلت الجملة التالية تلازمه طوال حياته السياسية وهى : « أن الحرية تحكم ايديولوجيتى من البداية الى النهاية » ..

بيجين فى بولندا مسقط رأسه . بيجين مسئول عن البيتار (الحركة القومية للشباب) بيجين قائد منظمة ارجون (حركة المقاومة ضد الانتداب البريطانى فى فلسطين) بيجين رئيسا للمعارضة . بيجين منتصرا يوم السابع عشر من مايو . لم يتغير بيجين فى جميع مراحل حياته اذ صرح قائلا « اننى مناضل من أجل الحرية ، رجل يحاول خدمة شعبه » .

ومن النادر ، بالفعل ، أن نجد حياة سياسية ، بنفس صدق حياة مناحم بيجين .. واذا ما تتبعنا الخطب التى ألقاها ، لاكتشفنا احدى مفاتيح شخصيته فى تلك اللازمة التى تتكرر دائما فى تصريحاته : اذ نجد نفس الادارة الجبارة الرامية الى رفع النهضة اليهودية فوق الأحداث وفوق الزمن وفوق الرجال .

غروب دولة حزب العمل

((أن انحدار مجتمع ما يبدأ من اللحظة التى يتساءل فيها الرجال عما سيحدث ، بدلا من التساؤل عما يمكنهم القيام به)) .

((دينى دى روجومونت))

من أجل بضع دقائق :

أن انتصار بيجين يمثل فى المقام الأول هزيمة حزب العمل . ولقد عجل هذا الحزب نفسه بهزيمته ..

ففى العاشر من ديسمبر سنة ١٩٧٦ اخذ اسحاق رابين رئيس الوزراء واغلبية وزراء حكومته وموردخاى جور رئيس أركان حرب جيش الدفاع الاسرائيلى ونخبة من كبار الضباط يقطعون بعصبية بالغة ساحة قاعدة جوية ريفية تقع فى مكان ما من الدولة على حد التعبير الذى تستخدمه الرقابة العسكرية الصارمة واخذ اتباع رئيس الوزراء يتفحصون السماء بخليط من الفخر ونفاذ الصبر الممزوج بالقلق .

وسأل اسحاق رابين : « هل سيصلون فى الوقت المحدد ؟ » . واجاب موردخاى جور الذى لا يفصح وجهه العسكرى الصارم عن اى تعبير قائلا : « من المقرر أن يصلوا فى الثالثة والدقيقة الخامسة والعشرين » .

وفجاة وتحت الأفق شقت ثلاث طائرات من طراز ف ١٥ السحب الكثيفة التى تكاثرت فوق المطار ووقفت الواحدة تلو الاخرى فى طرف ممر الهبوط صفا واحدا فى نظام تام . وانبثق من صدور الحاضرين ترحيب شديد تحية لهذا الوصول الذى كان رحلة روتينية عادية بالنسبة للطيارين .

بيد أن هذه الطائرات الثلاث من طراز ف ١٥ والتى حصلت عليها اسرائيل بعد مئات الساعات من المشاورات المضنية مع الولايات المتحدة تعلن عن أسطول حقيقى سيدعم طائرات الميراج التى أصبحت قديمة والفانتوم والكفير التى يتكون منها الطيران الاسرائيلى الأسطورى الذى يخشاه الجميع وتعد هذه الطائرة مفخرة التقنيات ومعجزة الاليكترونيات .

وقد تحدث ، لفترة انقلابا فى توازن الرعب للأسلحة فى الشرق الأوسط وهو انقلاب سيكون فى هذه المرة لصالح اسرائيل : ويبلغ العدد الاجمالى لهذه الطائرات خمسا وعشرين طائرة أولا عن آخر .

وصرح اسحاق رابين أمام ملايين المدعويين وهو يستقبل الطيارين الثلاثة قائلا : « أن اليوم مشهود فقد حصل جيش الدفاع الاسرائيلى ، وخاصة

قواته الجوية على طائرة ذات كيفية غير عادية ، لقد تسلم طيارونا افضل طائرة فى الشرق الأوسط » .

أما موردخاى جور فقد قال : « لقد أصبحت دولة اسرائيل وجيش دفاعها بعد حصولهما على طائرات ف ١٥ دولة أخرى وجيشا آخر » .

وفى هذه اللحظة المحددة ، لم يكن فى مقدور أحد من المدعوين أن يلتقط كل ما لآراء رئيس اركان الجيش من صفة النبوءة الحقة .

كان هذا اليوم هو يوم الجمعة ، وانتهت الحفلة المتواضعة واتجهت قوافل السيارات ببطء الى مقر مجلس الوزراء . واستعد الجميع لقضاء يوم « سبت لطيف » وقد شعروا بالسعادة لان الولايات المتحدة دعمت مرة أخرى قوة اسرائيل العسكرية . وتجاوزت الساعة الرابعة بعد الظهر بقليل . وكانت عطلة السبت فى القدس قد بدأت فى الساعة الثالثة وتسعة وخمسين دقيقة بعد الظهر ، وفى تل أبيب تبدأ فى الساعة الرابعة وسبع عشرة دقيقة . ويحل السبت ، طبقا للتقاليد اليهودية مثل ظهور النجوم بساعة تقريبا . وتلتزم المؤسسات القومية طبقا لاتفاق حكومى ، باحترام قدسية يوم الراحة الأسبوعية وتمنع من « انتهاك حرمة يوم السبت علنا » .

ولم يكن سبب القلق الذى كان يستولى على القادة منذ دقائق يرجع الى وصول الطائرات الثلاث بقدر ما كان يرتبط بحلول الليل المفاجىء . فهل سينتهك رئيس الوزراء وأعضاء وزارته قدسية عطلة يوم السبت علنا ؟ اذ قد تترتب على مثل هذا الانتهاك آثار ونتائج لا يمكن حسابها ، فى دولة يحتاج حزب العمل فى اطار الائتلاف الحاكم الى المساندة البرلمانية والأحزاب الدينية لكى يضمن أغلبية المقاعد ويحتفظ بالسلطة ، نظرا لأن توزيع التنازلات والحلول الوسط التى تحكم العلاقات بين العماليين وأعضاء الاحزاب الدينية يعد هشا للغاية . . وكان كالمان كاهان ، النائب المتواضع ، لحزب « بادلى أجودات اسرائيل » والذى ينتمى الى فريق المتعصبين دينيا ، سيدخل التاريخ رغما عنه فبعد هذه القضية ستنتهى دولة المباى لتحل محلها دولة الليكود . وقبل انعقاد الحفلة لاستقبال الطائرات كان هذا النائب قد اتصل بوزير الأديان طالبا منه اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة والتأكد من رئيس الوزراء شخصيا من أن الاحتفال سينتهى قبل بداية عطلة السبت . وبعد انتهاء الحفلة ظل اسحاق رابين يدافع عن حسن نواياه ونوايا أجهزته واضطر الى اذاعة بيان يعرب فيه عن « أسفه الشديد فى حالة ما لو كانت عطلة السبت قد انتهكت » .

ولم تقنع ثورة النائب المتشـــدد الغيـور على التقاليد الدينيـة هـذه الاعتذارت العلنية :

ففى الرابع عشر من ديسمبر قدم كالمان كاهان اقتراحا للبرلمان بسحب الثقة من الحكومة : وانتصرت الحكومة فى الاقتراع بخمسة وخمسين صوتا ضد ثمانية وأربعين صوتا . ولكن يا للمفاجأة ! لقد امتنع البرلمانيون الأعضاء فى حزب « الفـدال » (وهو الحزب القومى الوطنى العضو فى الائتـلاف الحاكم) عن التصويت باستثناء بوست بورج وزير الداخليـة الذى صوت لصالح اسحاق رابين . وقال وزير الداخلية فيما بعد : « عنـدما رأيت توفيق طوبى النائب العربى الشيوعى وشولاميت الونى الشهيرة بمناهضتها للدين يدافعان عن قدسية عطلة السبت ، بدأت أحدد نصيب الدين ونصيب السياسة فى هذه القضية . انها لقضية سياسية بحتة » .

وأخذ الطابع السياسى لهذه القضية فى التزايد يوما بعد يوم . فى التاسع عشر من ديسمبر وخلال اجتماع مجلس الوزراء أخبر اسحاق رابين وزارته الأعضاء فى الاحزاب الدينية باستغنائه عنهم : لان امتناعهم عن التصويت يتنافى تماما مع التضامن الحكومى . وفى مساء اليوم نفسه قـدم رابين استقالتـه . واسـتقالت وزارته الى افرايم كاتزير رئيس الدولة واتفقت الأحزاب التى تمت مشاوراتها على تحديد يوم السابع عشر من مايو موعدا لاجراء الانتخابات التشريعية القادمة .

ورأى الجميع فى هذا الاجراء « مناورة ماهرة » من جانب رابين .. فهو يقطع الطريق ، فى ظل هذه الظروف ، على الجهود التى يبذلها خصمه فى الحزب الا وهو شيمون بيريز وزير الدفاع الذى ينازعه السلطة علنا حتى أن حربا حقيقية بين الاخوة قد دارت بين صفوف حزب العمل وامتدت الى الحكومة وظهرت انباءها فى جميع الصحف . ومن جهة أخرى اوقف رابين باجرائه هذا انطلاقة حركة داشن (الحركة الديمقراطية من أجل التغيير) التى انشئت حديثا برئاسة الجنرال ـ عالم الآثار ايجـال يادين والتى تضم مجموعة من التكنوقراطين الشـبان اللامعـين ، وأسـاتذة الجاسوسية وكبار الضباط ومديرى المؤسسات وكل العناصر التى تمثل مفخرة الهيكل التكنوقراطى الاسرائيلى . كما يتجنب رابين بذلك أيضـا ، نشر سلسلة من الاجراءات الاقتصادية ، التى قد تغضب الشعب ، والتى اضطر وزير ماليته الى اتخاذها لمواجهة التضخم السريع ولتلبية المطالب المتزايدة للعاملين فى القطاع العام والذين ضاعفوا من اضراباتهم الوحشـية

والقاسية (مثل الاضراب الذى أعلنته الممرضات) أن تعيين رابينو فيتش المالية يمثل فشلا يتعذر بصورة مطردة كتمـانه أو اخفاؤه وأخيرا فاجأت استقالة رابين غير المتوقعة حزب الليكود الذى كان يعيد تنظيم صفوفه تحت إشراف عيزرا وايزمان رئيس أركان حرب السلاح الجوى السابق ، الذى داب منذ تقاعده على الاضطلاع بدور جمع شمل اليمين الليبرالى والوطنى .

وما لبث تكتيك رابين أن توقف دون أن يحقق أية نتيجة لقد استقال رئيس الوزراء السابق لكى يسحب البساط من تحت أقدام جميع خصومه ــ فى المعارضة وداخل حزبه على حد سواء ــ ولكنه سيكون الموظف الأخير فى تصفية السيطرة القديمة للعمال على الحكم « ان ما لم ينجح زلزال حـرب الغفران فى أكتوبر سنة ٧٣ » فى تحقيقه ، أحدثته عيوب حكومة رابين ــ بيريز الى جانب سأم ونفاذ صبر الطبقات الاجتماعية العديدة (صـغار البرجوازيين من التجار والصناع والشرقيين والشباب المسرح من الجيش والمهاجرين الجدد من الاتحاد السوفيتى .. الخ) :

لقد اندحر حزب وجهاز توليا أمور الدولة كلها لفترة طويلة لدرجة انهما ارتبطا بها ارتباطا وثيقا وانهما هما الدولة ولذلك سيكون السقوط بالغ الصعوبة . وكانت الهزات الأولى المتمثلة فى المشاكل قد أثارت قلق كثير من ساسة حزب العمل مثل أسحاق بن احارون ، سـكرتير عـام نقابة الهستادروت السابقة والذى اتخذ منذ استقالته موقف المعارض الغاضب والعنيد رغم هدوئه ، وكذلك دوفا بن مائير سكرتير عام حزب العمل السابق (أنؤدا) الذى كتب دراسة اجتماعية ذات دلالة هى « أزمـة فى المجتمع الاسرائيلى » نشرت عشية حرب سنة ١٩٧٣ ، أيضا ارينى لوفا الياف مؤلف كتاب أحدث ضجة وهو « دولة الابل » (أحد أسماء اسرائيل فى التوراة) يتناول فيه هذا الرجل السـياسى بالتحليل مشكلات اسرائيل المعـاصرة ودخولهـا فى لعبـة القوى الكبرى وفى مجال الشرق الأوسط ناقدا الادارة وجبن ساداتها فى البحث عن السـلام . ويعد الياف اليوم أحـد محركى نشاط اللجنة السياسية المشتركة الاسرائيلية الفلسطينية التى تحاول اجراء حوار صعب مع الفلسطينيين وأعضـاء منظمة التحرير الفلسطينية وكانت انتخابات سنة ١٩٧٣ التى مهدت لهزيمة سنة ٧٧ ، قد جعلت رجال حزب العمل يشعرون بالخطـر وهم الذين كانوا ينعمون ، حتى ذلك الحـين ، بالطمأنينة التـامة .

مهدال ، مهدال ، مهدال .. منذ الأيام الأولى التى تلت هجوم المصريين المفاجىء فى السادس من أكتوبر عنـدما كانت اسرائيل تحتفل بيوم الغفران

وبينما فاجأت الحرب الدولة الغارقة فى صلواتها وتأملاتها ظهرت هذه الكلمة وسرعان ما انتشرت فى جميع وسائل الاعلام ، وعلى أفواه كل الجنود الشبان وأرباب الأسر الذين أرسلوا الى الجبهة والذين فاجأتهم الحـــرب وهم فى سراديبهم وخنادقهم فى حالة من عدم الاستعداد بل ومن الاهمال والغفلة تكاد تقـــارب عدم ادراك حقيقة الأمر من جانب المسئولين العســـكريين والسياسيين .. وأغرقت القوائم الأولى للخسائر فى الأرواح والصور الاولى للأسرى الاسرائيليين الذين وقفـوا فى ذلة أمام آلات التصـــوير المصرية والسورية ، اسرائيـــل ، فى حالة من التخبط واختلاط الأمور ليس من المؤكد أنها قد شفيت منها حتى اليوم .

ان كلمة مهدال تعنى اهمال . ان الاهمال قائم على جميع المستويات فى نظام اسرائيل . ولنبدأ بالمجال العسكرى .. ان المصير الذى لقيه خط بارليف الشهير لم يكن أفضل من مصـــير خط ماجينو الذى كان الجميع يشيرون اليه فى عام ١٩٣٩ مرددين شعار « لن يمروا » .. ويحمل خط بارليف اسم رئيس أركان حرب الجيش الذى صـممه .. وكان جميـــع الاسرائيليين يقولون دائما انه : « لا يمكن الاســـتيلاء عليه » . وقد تكلف بناء هذا الخط ملايين الجنيهات وأقيم خلال حرب الاستنزاف ، فى الأعوام التى تلت حرب الأيام الستة . ولم يكن خط بارليف سوى سلسلة من مراكز المراقبة الحصينة والقلاع المدفونة حتى منتصفها تحت الأرض والتى تبعد الواحدة عن الأخرى بعشرات من الكيلو مترات . وقد اندفعت قوات الفريق الجمسى قائد القوات المصرية الى هـــذه الفجوات الحقيقية .. واستولت بسهولة على هذه الحصون كلها الواحدة تلو الأخرى باستثناء واحد فقط هو حصن « بودابست » .. والواقع أنه فى يوم الغفران وعلى الرغم من تحذيرات أجهزة المخابرات (التى أسىء تفسيرها) خلت معظم هذه الحصون من الاعداد والكميات العادية من الرجال والمعدات .

وتضاف الى هذه الحالة من التسيب واللامبالاة ، سلسلة من الأخطاء التكتيكية التى ارتكبها بعض كبار الضباط منذ الساعات الأولى لنشوب الحرب . والأسوأ من ذلك أن المعلومات التى أذاعها المتحدث الرسمى باسم الجيش والتى نشرتها وسائل الاعلام الاسرائيلية قد حرفت حقيقـــة الموقف المؤسف .. ومما لا شك فيه أن أزمة الثقة التى هزت الدولة بعد ذلك قد تولدت فى هذه الآونة عنـــدما سمع الجنود المرابطون على الجبهـــة بيانات حكومتهم المتفائلة التى تكذبها وقائع المعركة الشرسة التى يواجهونها .

وقال أكثر من مقاتل اسرائيلى « لقد أصبحنا نكذب مثل العرب » . وأضاف آخرون « لقد تعلم العرب أن يحاربوا مثلنا وتعلمنا نحن كيف نكذب مثلهم » وانتشر هذا التعبير وذاع فى حصون الجولان وفى خنادق سيناء .

وسيظل الخبراء يحاولون لفترة طويلة قادمة لكى يحددوا ما اذا كانت حرب الغفران قد أسفرت عن انتصار عسكرى أم عن هزيمة سياسية لاسرائيل ، ولكن لا شك فى أن الادارة السياسية القديمة هى التى منيت بالهزيمة فى الحرب .. وعلى « الديناصورات » — كما يطلق عليهم البعض بطريقة (تفتقر الى الاحترام) — ان يتركوا مقاعد الوزارة ويتخلوا عن السلطة التى يمسكون بزمامها منذ نشأة الدولة وعن المهام المريحة التى تغذى بسخاء السياسيين القابعين لهم .. وأخذ هذا الهمس الذى خرج من أرض المعركة يتزايد حتى بات صرخة غضب : « لا يمكن أن يدوم الحال على ما هو عليه » . وقد كررت مجموعة من جنود الاحتياطى الذين تم تسريحهم هذه الجملة اثر عودة «موتى الاشيكمينازى (أحد الجنود الذين نجوا من نقطة مراقبة بودابست ، حيث نزل أفراد هذه المجموعة الى الشارع وقد امتزجت أراؤهم يمينية كانت أم يسارية وتجمعوا كلهم سواء كانوا من الحمائم أو الصقور ، ونادى الجميع « بالتغيير » .

وانتشرت حمى المناقشات والمشروعات وثار غليان سياسى لم يسبق له مثيل واستولى على قدامى الضباط وعلى الجامعيين والكوادر الشابة التى تريد أن يستخلص الجيل السياسى القديم ، الذى يأفل نجمه ، دروس حرب أكتوبر ..

وعلا بصورة مطردة صوت الذين أصبحوا لا يترددون فى المطالبة باقالة الجنرال موشى ديان وزير الدفاع الذى حمله الرأى العام مسئولية « اهمال » الحرب بينما برأه تقرير لجنة اجرانات « التى شكلت لمحاكمة المسئولين عن الحرب . ولم يستطع أريل شارون ، الافريقى ، بطل الثغرة فى الضفة الأخرى لقناة السويس ، والذى يعد المنتصر الحقيقى الكبير فى هذه الحرب وبطل شعب بأكمله ، أن يخفى صراحته واحتقاره تجاه زملائه الضباط الذين اخفقوا فى الحرب . وصراحة القول كان ثمة شىء ما قد تغير داخل اسرائيل : فلم يعد هناك أشخاص مقدسون لا يمكن أن يتناولهم أحد بالنقد ولم يفلت أحد من النقد ولا حتى جيش الدفاع الاسرائيلى المزود بأحدث الأسلحة المطورة .

وفجأة استولى الخوف على حزب العمل : فقد تحدد يوم ٣١ ديسمبر موعدا لاجراء الانتخابات واستعد هذا الحزب طوعا أو كرها لاخلاء المكان لكتلة الليكود التى كانت فى أوج صعودها بفضل شعبية اريل شارون الذى كان اسمه يتصدر احدى القوائم الانتخابية لتلك الكتلة وفى مقر قيادة (المعراخ ، تحالف أحزاب العمل والمابام ، الأكثر يسارية والماركسى) لم يعد أحد يتوهم كثيرا : اذ أن الشعب مستعد للتحول والتغيير . ومن المؤكد أن حركة « التمرد والرغبة فى التغيير » الجماعية ستنعكس على صناديق الاقتراع .

٣١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ : سيعلن التليفزيون بعد لحظات النتائج الأولى للانتخابات التشريعية التى اتفق جميع النقاد على أنها قد تكرس فشل وعجز المجموعة التى تتولى السلطة . وأخذت جولدا مائير تدخن السيجارة تلو الأخرى ، وتطلق زفرات تنبعث من أعماق صدرها « لقد بدأت فى تلقى النتائج الأولى للمجالس البلدية (المقترنة بالانتخابات التشريعية) لقد انتزعت عمودية تل أبيب من أيدى » بيهوشوا رابينوفيتش أحد القادة القدامى للماباى لكى تستقر فى أيدى شلومولاهات ، مرشح ليكود ، والجنرال الاحتياطى .

وبعد انقضاء بضعة ساعات أمكن للجدة الشجاعة أن تتنفس الصعداء : فقد انتصرت مرة أخرى على عدوها اللدود مناحم بيجين اذ حصل الليكود على ٣٥ مقعدا مقابل ٥١ مقعدا حصل عليها تآلف المعراخ .. وعلى الرغم من استيائهم ، شعر الناخبون الاسرائيليون المحافظون بالخوف من المضى فى المغامرة وخوض المجهول . ومرة أخرى وبعد حصولها على ثقة الكنيست شغلت جولدا مائير الوزارة الجديدة برجال حزبها وحزب الائتلاف وبقى ديان وزيرا للدفاع وكوفىء رابينوفيتيش بعد فشله فى انتخابات المجالس البلدية لتل أبيب ، وعين وزيرا للاسكان . وحصل اسحاق رابين لدى عودته من واشنطن على أول منصب وزارى له حيث أصبح وزيرا للعمل .

ومع ذلك فقد حدث تحول معين ومحسوس من جانب هيئة الناخبين لقد فقد المعراخ ستة مقاعد من تلك التى كان فاز بها فى انتخابات عام ١٩٦٩ بينما نجح الليكود فى الحصول على ١٣ مقعدا جديدا ، وهكذا بدأ

فى عام ١٩٧٣ ما حدث فيما بعد فى عام ١٩٧٧ . فقـد لقن حزب العمل درسا قاسيا من هيئة الناخبين التى وقفت عند حافة التغيير السياسى الشامل .

وعلى مدى أربعة أعوام تولت الحكومة التى خلفت حكومة جولدا مائير (التى استمرت فى الحكم ثلاثة أشهر فقط) والتى رأسها اسحاق رابين مهمة التبديد السريع لكمية الثقة التى بقيت لدى الشعب .. ذلك الشعب الذى هزته أزمة عميقة زلزلت أسس مجتمعه التى لم تمس حتى الآن بما فى ذلك معتقداته ورؤيته للعالم .

مجتمع فى أزمة

انتقل المجتمع الاسرائيلى فجأة فى عام ١٩٧٣ من جو الكآبة الذى ساده اعتبارا من عام ١٩٧٠ الى العنف شبه العصبى والى نوع من الاستسلام المرضى للهلع الذى يعد صفة مميزة لليهود والذى اختلط بتقلب الأطوار الذى يعد سمة شرقية بحتة .. « ان هواء القدس ينقى الروح » هكذا يقول حكماء التلمود .. اذ أن مناخ اسرائيل العام يؤثر على التفكير أيضا ، ويشحذ الاحاسيس كالخمر ؛ وانتقل شعب بأكمله فى ليلة واحـــدة من نشوة الانتصار الى التشبع بالندم ويعكس ذلك الأمر أيضا الروح الجماعية لاسرائيل التى اعتادت تداول المستحيلات الجدلية ..

ومحاولة التوفيق بين الأضداد وتنسيق التناقضات الفلسفية بصورة يكاد لا يصدقها العقل حقا ان اسرائيل تمثل هذا المزيج المتفجر من التفاؤل المكابر الذى يتطلع الى الخلاص وهو فى أفران النازية رازحا تحت نير ألوان التعذيب والاضطهاد ..

ومن الذى يستطيع الشك فى أن الهواء الطبيعى الذى تتنفسه اسرائيل هو نوع من الهيستريا المذابة فى صرخات لا نهـــاية لها تنتقل من اللوم الدائم الى شك كبير استقر فى أكثر التأكيدات جزما ؟ هذا هو السؤال الذى يلائم اسرائيل بما لا يقل عن ملائمة الأجوبة التى تحاول تقديمهـــا بشأن بقائها .

ومن الأفضل لكى نفهم اسرائيل من الداخل ، أن نحللها فى حركتهـــا وليس فى سكونها ، فى المناقشات التى تجرى داخل السيارات وليس فى المقالات الافتتاحية التى تنشرها التايمز البريطانية . ويا لها من سخرية هائلة وتشاؤم كامل يحدث أثره أولا على الذات ثم على العالم . ودخل عهد الشك التاريخ منذ ظهور ابراهيم الذى حطم أصنام والده . ولم تعرف اسرائيل عقدة أوديب .

وعلينا أن نتذكر دائما أن التوتر الأقصى بين الأمل والخوف هو الذى يكون النسيج الحسى والروحى لاسرائيل .

فهل أدركنا ذلك ؟ لقد أدركنا بوضوح هذا الجنون بالوطنية الذى يمثل مرض اسرائيل الجماعى والذى يشل فجـأة كلا عضـلاتها ويوتر أعصابها ويجعلها تنبش جراحها بقوة لا مثيل لها وتمارس ذكاء أعمى ، لا يظهره سوى منتهى اليـأس ، ويذهب الى حد انكار الذات والى « كره اليهودى لذاته » الذى وصفه الفيلسوف الألمانى ليسنج . بأنه شعب لا يستطيب « الرضاء النفسى » — أو نادرا ما يستطيبه — ولا يرضى عن نفسه الا بصعوبة بالغة حيث تلتصق به مشكلة شخصية . ان اسرائيل هى شعب يناضل ضد نفسه قبل أن يناضل ضد الآخرين .

وهناك على أية حال فترة من التاريخ المعاصر لاسرائيل الحديثة أوشك فيها القلق الدائم والتساؤل عن الذات المعذبة ، على التحول الى شعور « تافه » هو الكبرياء ، بسبب تحقيق الانتصارات العسكرية . كان ذلك فى عام ١٩٦٧ بعد أن هزم جيش الدفاع الاسرائيلى القوات العربية المشتركة وبعد ان فرضت قواته سلطان اسرائيل على الشعوب الذليلة . وأخذ كبار الجنرالات ، عباقرة أرض المعركة الذين يفتقرون الى اللباقة فى الحديث أمام الصحافة العالمية أخذوا يتحدثون ، وهم يحملون الكؤوس بين أيديهم ويرتدون زيا عسكريا أنيقا ، عن امبراطورية اسرائيل والقدرة الاسرائيلية والحملات الجديدة لكى يصارحوا دمشق والقاهرة والحكام العرب بحقيقة أمرهم ولكى يحققوا فى غمرة الأحداث الديمقراطية والأمن الاجتماعى للجماهير العربية التى ستعترف لاسرائيل بهذا الجميل .. ولم يتبق ثمة أثر للنزعة العسكرية ما دام المدنيون عسكريين . وكل العسكريين يصبحون مدنيين منذ بلوغهم سن الخامسة والأربعين .

وقد تولدت روح من البلادة اثر حرب الأيام الستة متمثلة فى تنافر الأناشيد العسكرية وظهور الأغانى الهزيلة ، كما يحدث دائما بعد عروض الجيش العسكرية ، واصدار البومات الصور التذكارية التى يتخاطفها السياح ، واقامة الحفلات التى يظهر فيها كبار الضباط الذين يثيرون اعجاب سيدات الطبقة البورجوازية القليلة العدد فى تل أبيب . وانتشر هؤلاء الجنود فى كل مكان بعد أن تملقهم شعب بأكمله وراحوا يتحدثون كثيرا وهم الذين كان صمتهم واصدارهم للاوامر المختصرة والفعالة يعد بمثابة الأساطير .

ثم ظهرت المثالب الأولى لهذا الوضع الجديد فقد عاد هذا الجنرال أو ذاك من ايطاليا بعد مهمة رسمية وقد شيد داخل منزله حمامات من

المرمر الايطالى فما هو عذره ؟ انه يعانى من البواسير . وشيد آخر فيلا فاخرة بفضل الأيدى العاملة التى التقطها من قاعدته العسكرية وبأدوات سرقها من الترسانات . وذهب به مرض التعاظم الى حد تغطية مقابض الأبواب بالذهب . ولا شك فى أن هذه الظاهرة تعد هامشية ولكنها كانت تكشف عن مدى الأخطار التى تحوم باسرائيل : ان عام ١٩٦٧ يمثل حقا صدعا فى تاريخ هذه الدولة .

فالواقع أنه حتى ذلك الوقت كانت الصورة العزيزة على قلب هذا المجتمع الصغير المتطوع ، المتضامن الذى يشبه قرية كبيرة تفوق مساحتها مساحة قطاعين فرنسيين ونصف ، هى صورة مجتمع الأخوة المتقشف ، الرائد ، المتواضع فى طلباته وحيث يتساوى نصيب الحلم مع نصيب الواقع . وكان بن جوريون الذى اعتزل فى أواخر حياته فى صحراء النقب المهجورة فى مستوطنة سدى بوكر المنعزلة التى أنشأها الشباب المجنون المولع بالمغامرات والخدمة الاجتماعية ، يمثل أكثر من صورة لقد كان نموذجا مثاليا لا يمكن لأحد أن يفكر فى الاستهزاء به رغم ندرة الذين وجدوا فى انفسهم الجرأة الكافية لكى يحذوا حذوه .

وفى خلال عشرة أعوام حلت الروح العملية – التى لم تكن فعالة دائما – محل الايديولوجية القديمة الاشتراكية المثالية ، كما سادت المادية السافرة مع نزعة اقليمية تبعث على اليأس : واستقرت بالفعل الميول الشرقية التى طالما خشيها مؤسسو الدولة . وانشئت المطاعم الفاخرة المزدحمة دائما ، وانتشرت أزياء بيركاردان وركب الاسرائيليون السيارات الفولفو والمرسيدس وقاموا برحلات للخارج ، محققين بذلك حلم الطبقة البورجوازية الصغيرة المتطلعة الى الرفاهية فى جميع المجتمعات الغربية .

وترتب على ثراء طبقة اجتماعية محددة المعالم هى طبقة مقاولى الأشغال العامة ورجال الصناعة الذين يعملون لحساب وزارة الدفاع الوطنى ومستوردى المواد المستهلكة ، ان القى باسرائيل بين عشية وضحاها فى مجتمع السيولة . وقد أعطى المارك الألمانى المتولد عن أصلاحات الحرب (التى عارضها بجين بشدة) مذاقا مسبقا لهذا التحول الذى استكمله بصورة نهائية تدفق الدولارات التى قدمتها المساعدات الامريكية والدعم الذى تبرع به يهود الشتات غداة يونيو سنة ١٩٦٧ . وأثناء حرب الاستنزاف فى السبعينات وعندما أقام الجنرال بارليف خط الدفاع الذى يحمل اسمه على طول قناة السويس ، كان يكفى أن يمتلك المرء بولدوزرا

لكى يصبح عملاقا فى مجال التشييد والبناء : وفى سنة ١٩٧٠ بلغت قيمة تأجير هذا الجرار ليوم واحـــد لوحدات الجيش المجـــاورة حوالى ثلاثة آلاف ليرة .

وطبقا لهذه الدفعة أمكن لهيرمان كاهن Hermann Kahn الأســتاذ فى معهد هدسون Hudson أن يتوقع ان اسرائيل ستصبح فى ســنة ٢٠٠٠ سويسرا الشرق الأوسط بحق .. وفى انتظار تحقيق ذلك كانت النفقات العسكرية تستحوذ على ما يقرب من ربح اجمالى الناتج القومى وأثقلت الديون كاهل الدولة التى بلغت مديونيـــة الفرد الواحـــد فيهـــا لمختلف منظمات القروض الدولية رقما قياسيا هو ستمائة دولار تقريبا هـــذا فضلا عن الديون الشخصية . اذ أن الاسرائيلى المتوسط يعيش ، فى غفلة من الحكومة ، بأعلى من مستوى دخله ويضطر فى كثير من الأحيان الى أن يقوم بعمليتين فى آن واحد بل والى العمل سرا أيضا ، ويعيش مثقلا بالديون طوال حياته مما يؤثر على عمله ويسبب له تأنيب الضمير أيضا . هكذا كان حال هذا الاسرائيلى المهاجر الى الولايات المتحدة الذى أفضى يوما لمراسل صحيفة معاريف بقوله : لقد تركت البلاد لأنى لم أعد أطيق الكذب، ولم أكن راغب فى الانفاق أكثر مما اكسب ولا فى أن أعيش خائفـــا من رؤســـائى فى العملين اللذين لا أعتنى بأى منهما من حيث الكيفيـــة حيث تضطرنى الى ذلك ظروف حياتى » .

سوق سوداء للعملات الحرة ، تزوير الاقرارات الضريبية للادخار فى الخارج (وتبلغ قيمة النقود المهربة للخارج بثلاثة مليارات من الدولارات) كأن جميع الاسرائيليين يقومون بهذه العمليات الخاصة متحايلين ، فى سبيل ذلك على القانون بطريقة ما . بيد أن ذلك يثقل كثيرا على مجتمع اراد أن يكون بعبدا ، على الأقل فى بداية عهده عن المظاهر المالية ، وعدوا للزيف ، ونقيا الى حد الزهد ، ومحتقرا للمادية .. حتى اذا كان الجميع — تقريبا — يخدعون السلطات ويغشون ضمائرهم ، فان عقدة الذنب تكون أكثر ثقلا فى حملها! : وهكذا كان أحـــد قرارات وزير الماليـــة فى حكومة بيجين هو تبييض الحال الأسود الذى ينساب داخل اسرائيل وخارجهـــا وعلاوة على مزاياه المالية فيما يتعلق بمنطق الاقتصـــاد الحر ، فان لهذا الاجراء تأثيرا نفســـيا : اذ أن الاسرائيليين الذين يعتبرون انفسهم مواطنين غير صالحين بمقياس الالتزام الاجتماعى الصـــارم ، والذين قاموا بتهريب أموالهم ، يمكنهم ، حماية لأموالهم التى امتصها التضخم الرهيب — تقريبا ٤٠٪ — فضلا عن الانخفاض المستمر لقيمة العملة الوطنية ، أن يعيدوا أموالهم

فهذا على الأقل هو ، ما تأمله وزراة المالية) دون أن يتعرضوا لأى لوم عام .. وعلاوة على ذلك ، سيحصلون ، مكافأة لهم على ما يشبه شهادة بوطنيتهم .

والى جانب ثراء هذه الشريحة الاجتماعية ، كان المواطن المتوسط يعانى من الفقر خاصة فى نهاية كل شهر . ويثرى البعض بصورة متزايدة بينما البعض الآخر يعانى من تناقص الموارد اللازمة لمعيشتهم .. ولدى نشأة الدولة كانت الفوارق فى المرتبات لا تتجاوز ١ : ٣ بينما وصلت اليوم الى ١ : ١٢ . وعندما يعلن المهندسون الاضراب يكون ذلك لأنهم يعترضون على تباين المرتبات بينهم وبين زملائهم فى قطاعات أخرى . وعندما أوقف موظفوا شركة العال رحلات الطيران كان ذلك لاعتراضهم على المساس بعملاتهم الحرة من الدولارات والاسترلينى التى يعتبرونها جزءا لا يتجزأ من مرتباتهم بينما يشير تقرير حكومى الى أنه ما من طيار تابع لشركة العال قد قام خلال الخمسة أعوام الأخيرة بتبديل أى مبلغ من العملات الحرة فى البنوك الاسرائيلية . بيد ان غلاء المعيشة الدائم والضرائب المفرطة تمس بصفة خاصة الطبقات الأكثر فقرا ..

وهى تمس فى المقام الأول قطاعا من الشعب الاسرائيلى يطلق عليه استحياء اسم « الطبقات غير المحظية » .. وغالبا ما تتكون هذه الطبقات من عائلات كثيرة لا تستطيع أن تعبر حاجز الفقر وتعيش فى ظل ظروف لا تطاق من التكدس .. ويقوم أطفالهم بارتكاب الآثام وممارسة الدعارة واستهلاك المخدرات والاتجار فيها .

وتتحدث بعض الأرقام عن نفسها .. وينطبق ذلك على تقديرات « اسرائيل كاتز » مدير التأمينات الاجتماعية السابق (والذى يشغل اليوم منصب وزير الشئون الاجتماعية) الذى كتب تقريرا — يحمل اليوم اسمه — يتعلق بالفقر فى اسرائيل وبالشباب الذى يواجه الخطر : واذا كان متوسط الدخل القومى فى عام ١٩٧٥ قد بلغ ٣١ر٤٠٠ ليرة ، فان دخل العائلات التى يرجع أصلها الى الدول العربية بلغ ٢٧ر٤٠٠ (بينما يزيد عدد أفرادها عن عدد أفراد العائلات الأخرى) وتجاوزت العائلات التى يرجع أصلها الى أوروبا وافريقيا هذه النسبة المتوسطة وبلغ دخلها ما بين ٣٣ر٤٠٠ و ٣٩ر٠٠٠ ليرة سنويا . ان اجراءات الاصلاح الاقتصادى التى اتخذها « سيمحا ايرلخ » والاتجاه القائم بصورة متعمدة على التحرير الرأسمالى للاقتصاد — وفقا للتوصيات الملحة للأب الأكبر للرأسمالية

الجديدة وهو « ميلتون فريدمان » الحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد لابد أن يسفرا عن تفاقم الموقف .

ومنذ تولى حزب الليكود السلطة ارتفعت أسعار المنتجات الاستهلاكية الاساسية مرتين بما يتراوح ما بين ٢٠ ، ٢٥٪ مما يثقل كاهل ميزانية العائلات الأكثر فقرا ..

وفى مجال آخر لا شك فى انه سيحدد وجه المجتمع الاسرائيلى فى المستقبل وهو مجال التعليم ، ترتب على تسعة وعشرين عاما قضاها حزب العمل فى السلطة ، والأضرار ، لفترة طويلة قادمة بغرض تقدم العائلات السفارديم (من أصل شرقى) .

ويمثل أبناء هذا القطاع من السكان (الذى يبلغ عدد أفراده ٦٥٪ من اجمالى تعداد الشعب) ٦٠٪ من تلاميذ مرحلة التعليم الابتدائى و ١٢٪ من التعليم الثانوى (بالمصاريف على الرغم من بعض الاعانات العائلية) و ٨٪ من التعليم الجامعى و ٤٪ من الحاصلين على شهادات من الجامعات الاسرائيلية .

وفضلا عن ذلك فان هؤلاء اليهود ، الذين يرجع أصلهم الى دول اسلامية ، ليسوا ممثلين بصورة كافية فى البرلمان (٢٠ نائبا من ١٢٠) وفى الحكومة (وزيران ونائب وزير) وفى الادارة العليا وفى الجيش (جنرال واحد من أصل يمنى وفى المجال الدبلوماسى) لقد كان نصيبهم التجاهل والاستغلال : فهم الذين يكونون أغلبية الأيدى العاملة الوطنية فى قطاعات العمل وفى الطرق يقومون بتجفيف المستنقعات ، وتشجير الهضاب الجرداء ولكنهم دائما منسيين ساعة اعداد « بيانات الانتصار » التى تصدرها « المؤسسة » بصفة دورية . وفى أوروبا يمكن أن يطلق عليهم اسم « العالم الرابع » . وهنا يسمونهم « اسرائيل الثانية » .

اسرائيل الثانية : انه تعبير يطلق العنان للتفكير فى مجتمع كان يريد لنفسه أن يكون مجتمعا متساويا ولكن نجد فيه طبقا لعنوان قصة اثارت ضجة كبرى ان البعض متساوون والبعض الآخر أكثر تساويا أيضا » .

ويقيم هؤلاء اليهود فى المدن النائية أو التى تقع على الحدود فى مواجهة هجمات الفلسطينيين (مثل كيرات شمونية ، معلوت ، بيت شبان) وفى الأحياء الفقيرة من المدن الكبرى (موسارا وكاتانون فى القدس ووادى صليب فى حيفا وشوخناط هاتيكوا فى تل أبيب) ومعناها مدينة الابل) .. ان

« اسرائيل الثانية » هذه لا تجد نفسها فى القيم التى نودى بها والتى حط العماليون من قدرها .. ويرى أفراد اسرائيل الثانية أن الحديث عن الاشتراكية الذى يفتقر الى لون محدد لا يفيد الا للابقاء على امتيازات نخبة أسست نفسها بنفسها . ولا شك ان اسرائيل الثانية تتعرف على نفسها بدرجة اكبر ، فيما وراء أى تحليل سياسى « منطقى » ، فى صورة اليهودى التقليدى الذى يمثله مناحم بيجين ، « الرجل القوى » الذى « يعرف كيف يتحدث الى العرب » .. وفى الحقيقة لا يهم هؤلاء اليهود الشرقيين كثيرا أن يكون جميع الوزراء من الرأسماليين الفعليين سواء أكانوا من كبار أو صغار رجال الصناعة الذين لا يعرفون العقد : ان هؤلاء على الأقل لديهم الجرأة الكافية للاعتراف بلونهم الحقيقى ولا يمارسون أعمال المتميزين من وراء الستار الباهت لاشتراكية اقتصرت فائدتها على الابقاء على من يلوكون اسمها حيث هم من السلطة .. « وذات يوم من أيام شهر ابريل ١٩٧١ أطلقت مجموعة من الجانحين الشبان والعاطلين ، الذين يعيشون بلا عمل فى ضواحى الفقر ، على نفسها اسم « الفهود السوداء » والقت بذلك فى وجه المجتمع الاسرائيلى تحديا اجتاح هذا المجتمع الى وقت طويل حتى تسنى له أن يفيق منه .

ومما لا شك فيه أنه لأول مرة منذ اضطرابات وادى صليب فى سنة ١٩٥٩ اكتشفت اسرائيل مدى صعوبة سد «الهوة الاجتماعية والطائفية». ومنذ ذلك الحين فصاعدا يرفض الشباب الشرقى أن يضحى به على مذبح أمن البلاد ، تلك الحجة الأزلية التى تساق لرفض المطالب الزهيدة التى يتقدم بها هذا الشباب .

فماذا يريدون ؟ مساحة أكبر فى شققهم التى يرثى لحالها — تعيش ٤٠٫٠٠٠ عائلة شرقية فى منازل تضيق بعدد سكانها — وتعليما يتلاءم مع تراثهم الثقافى ولا يصطبغ بهذه الصيغة الأوروبية — المركزية فى هذه الدولة التى تنتمى الى منطقة الشرق الأوسط ، ونظاما أفضل للتأمينات الاجتماعية والاعانات العائلية . وفى كثير من الأحيان تختنق هذه الأصوات الشابة تحت وطأة المزايدات السياسية أو بالأخرى عن طريق شراء سكوتهم . بيد ان هذه الاصوات الشابة الثائرة لم توشك بعد على أن تخمد .. لقد انضم بعضهم الى المعارضة الشيوعية مثل النائب الشاب « شارلى بيتون » الذى ذاق مرارة السجون ، بينما انضم الآخرون الى الأحزاب المعتدلة مثل حزب داش أو الى اليسار مثل حزب شيلى . بيد ان الجميع يريدون أن يكون لهم فى النهاية صوت مسموع ، أى أن يشتركوا فى الحكم . وربما يدل

القرار الذى اتخذ مؤخرا بانشاء وزارة الشئون الاجتماعية التى عهد بها الى « اسرائيل كاتز » (الذى يحظى باحترام جميع ممثلى اليهود الشرقيين) على ان الحكومة الاسرائيلية الجديدة اتجهت ، على الرغم من المنطق الاقتصادى الذى يحكمها نحو العمل على تحقيق المزيد من العدالة الاجتماعية .

ذلك انه حان وقت العمل بسرعة .. وخاصة فيما يتعلق بالشباب .. ان معظم الجانحين وممارسى الدعارة وتجار المخدرات (من جميع الأنواع) ينتمون الى الطبقات الفقيرة بينما يرتكب الجرائم الحقيقية أفراد الطبقات المتميزة والدينية أيضا فى بعض الأحيان . ولا يتأثر أحد على الاطلاق من أن ٩٠٪ من نزلاء السجون يتكونون من يهود من أصل شرقى . ولكن عندما يتعاطى بعض أبناء طبقة الشباب الثرى فى اسرائيل الجميلة (الوجه الآخر لها) المخدرات فى مدارس رامات هاشارون وفى الأحياء الأنيقة من تل أبيب أو القدس يسارع الجميع بالاشارة الى أن هذه المخالفة تمثل أحد ظواهر المجتمع الحديث وتفيد دراسة اجراها البروفسير باراك المستشار القضائى للحكومة بأن حوالى مائة ألف شخص يتعاطون المخدرات بصورة منتظمة الى حد ما .. ومن بين هؤلاء الأشخاص كثير من الشبان ، مثلما يحدث فى العالم كله .. ومع ذلك ينظر الى هذا الأمر فى اسرائيل على اعتبار أنه كارثة حقيقية ، اذ أن مستقبل الدولة ووجودها يرتكزان أساسا على الشباب الذى قام الحلم الاسرائيلى من أجله واستنادا اليه .. ان هذا الشباب الممثل فى الصابرا يعد فخرا لأهله الذين يقومون بحمايته وتدليله وجعله مسيطرا لا يواجه العقبات . انهم يريدون طرد أشباح المنفى والعائلة اليهودية التقليدية التى تعانى من الاختناق والجائرة الى حد ما ..

وماذا لو كف هذا الشباب فجأة عن الايمان بالملحمة الصهيونية ؟

سينهار المشروع اذن . لقد اتهموا هذا الشباب بجميع العيوب : بالمادية والأنانية والافتقار الى المثالية بينما قد يقتصر مطلبه الوحيد على أن يعيش حياة طبيعية كالتى يعيشها الناس فى ليفربول وتولوز أو بوستون وينظر هذا الشباب بعين متشككة وساخرة الى المثاليات الاجتماعية التى ارساها الكبار ثم خانوها ..

وقد بعث طلبة المدارس بخطاب الى جولدا مائير فى ابريل سنة ١٩٧١ بعد ان رفضت السماح للدكتور ناحوم جولدمان بمقابلة عبد الناصر جاء

فيه . « عن طلبة السنة النهائية ، نعبر عشية دخولنا الجيش ، عن انتقاداتنا للسياسة التى تنتهجها الحكومة فيما يتعلق بمقابلة جولدمان لناصر . وكنا نعتقد حتى هذا اليوم اننا سوف نخدم البلاد ونقاتل طوال ثلاثة أعوام لأنه ليس أمامنا أى اختيار . ولكن وبعد أن أثيرت هذه المسألة، تبين لنا أنه لو توفر مثل هذا الاختيار ، حتى وان كان بسيطا ، فاننا نتجاهله .. ان سياسة الحكومة تبدد فرص السلام ونحن نوجه لكم نداء نناشدكم فيه استغلال أى فرصة تسنح لاقرار السلام » . وقد أحدث هذا الخطاب دوى القنبلة داخل نظام الحكم . اذ تحدث البعض عن نزعة الانهزامية والعدمية دون مراعاة القلق الذى ينتاب هذا الشباب اليائس. وأثارت جماعات اليسار (ماتسبين وسياح) ومسرح النقد السياسى اللاذع (مثل مسرحية « ملكة الحمام » ، تضحية اسحاق ، وهى المسرحية التى تعرض أسطورة قديمة من التوراة تتعلق بالتضحية بحياة الشباب الذى كان الكهول الأنانيون يلقون بهم فى الهلاك باسم المثاليات القاسية وغير الواقعية) أثار ذلك غضب الكبار الذين وجدوا ان هذا الشباب المجادل والغاضب لم يعد يشبه فى شىء تلك اللبنات الصغيرة التى رعوها بكل العناية . ولم ينته النضال من أجل انقاذ هذا الشباب من مرض «الشك» واللاخلقية بل انه يمثل هدف زيتولون هامر وزير التعليم الجديد المتدين والذى لا يخفى ميوله للنشاط الروحانى لجماعة الجوش ايمونيم .

وظهر خوف جديد أكثر الحاحا يتمثل فى مشكلة الهجرة .

ففى عامى ١٩٧٦ و ١٩٧٧ عبر ١٠ر٢ مهاجر ابواب الدخول الى الأرض المقدسة (منهم ٥٠٠ر٧ من الاتحاد السوفييتى و ٢٠٠ر٢ من الأرجنتين و ١٥٠٠ تقريبا من فرنسا) بيد أن ٨٠٠٠ من بينهم جاءوا لقضاء فترة مؤقتة فقط . وفى نفس الوقت خرج ٠٠٠ر١٥ شخص مهاجرين من البلاد . ومنذ عام ١٩٤٨ ترك ما يقرب من ٠٠٠ر٢٣٠ شخص (من بينهم ٠٠٠ر١٤٠ مهاجر) اسرائيل بينما لم يكن قد اندمج فيها سوى ما يزيد على المليون يهودى منذ انشاء الدولة : وانتقصت الهجرة ٣ر٩٪ من هذا المجموع .

ولا يمكن أن تحقق دولة اسرائيل ذاتها من خلال روح الصهيونية الا بالهجرة لأنها انشئت لاستقبال أكبر عدد ممكن من اليهود . وترمز كلمة « العليا » أى الصعود الى البلاد صعود بمعنى الارتفاع الروحى ، والتحول الكامل للفرد اليهودى الذى غسل نفسه ونقى روحه من بلاد المنفى . اما

الرحيل في صورة يهود الشتات أي النزول باللغة العبرية فانه يهدم مرة واحدة التبريد الايديولوجي والأخلاقي للمشروع الصهيوني ، انها خيانة يعيشها المهاجر والمحيطون به وهم يشعرون بالألم والعار .

« مجموعة من البؤســـاء المســاكين » كذلك وصف اسحاق رابين ، رئيس الوزراء الاسرائيلى السابق ، أولئك المهاجرين الى الخارج . ولكن هذا الوصف فقد فاعليته لدى الرأى العام الذى لم يعد يكتفى بالشعارات الجوفاء . ويفضل الجميع اليوم دراسة الوســائل التى قد تعيد الأبناء المفقودين فى الخارج والذين يتمسكون بشدة فى غالبية الأمر بوطنيتهم ، بدلا من معاملتهم كمذنبين . هذا اذا لم يكن من يريدون اعادتهم يفكرون فى دخيلة أنفسهم فى أن يفعلوا بالمثل وذلك لأســباب شتى : الحصول على المال أو من اجل الدراسة وخاصة من أجــل استنشاق الهواء الحــر والاستمتاع بالمساحات الواسعة لان أطول رحلة فى اسرائيــل لا تتعــدى مسافتها أربعة الاف كيلو متر وتنتهى عند حدود لا يمكن عبورها . أن المرء يختنق فى هذا المجتمع حيث يندر التآلف لكثرة ما يقضى به التضامن ، ولتوالى بيانات الأذاعة وتسلط اعــلانات الوفيــات الكثيرة التى تنشر فى الصحف أو تعلق على لوحات المجالس البلدية . وثمة اتجاه انسانى يتغلب على كل ما عدا ذلك . وقد اندهش أريل شارون بطل حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ الذى أوفد الى الولايات المتحدة لاقناع بعض المهاجرين بالعــودة الى اسرائيل حينما التقى بالعديد ممن كانوا يخدمون تحت قيادته كضباط ويبلغ عدد المهاجرين فى نيويورك ١٥٠٫٠٠٠ اسرائيلى يعيش أغلبهم على الكفاف ونادرا ما ينجح أحد (مثل رئاســة لوريه أشهر رسام كاريكاتورى فى الصحافة الأمريكية) . ومن بين كل خمسة من سائقى سيارات الاجرة ثمة سائق يتحدث اللغة العبرية . وفى باريس أيضا وفى بعض المقاهى مثل مقهى السيلكت فى منطقة مونبارناس أو فى بعض المحال التجارية الصغيرة ، يزيد عدد المتحدثين باللغة العبرية التى تشوبها نبرة حنين .

ومن قبل وفى عام ١٩٦٦ ، أى فى عهد الانكماش الاقتصادى انتشرت نكتة مرة فى صالات التحرير وداخل الصالونات تقول « يرجى من أخــر من يغادر مطار اللد أن يطفى الأنوار ويضع المفاتيح تحت العتبة » . وبعد حرب عيد الغفران ازدادت حركة الهجرة ولم تكن هــذه المرة لأسباب اقتصادية ولكنها كانت ترجع اساسا الى الضغوط النفسية التى تعرض لها العديد من المناضلين الذين اكتشفوا ــ مثلما حدث فى عام ١٩٤٨ ــ

أن الحرب لا تكون بالضرورة سريعة ولا نظيفة . وأن ما كان يدغم الارادة الفولاذية لمؤسس الدولة هو نفسه الذى جعل أبناءهم يتراخون ..

أن الحرب مستمرة والسلام مرهون ويتزايد ابتعادا يوما بعد يوم . وبين هذين الشبحين توجد الحياة — أو ما تبقى فيها — بجرحها وآلامها وأشباحها بحيث لم تعد تشبه فى شيء الحياة الآمنة فى العواصم الغربية . وهذا ما يفسر بصورة كبيرة تفاقم الالم الذى لابد من ازالته والعنف الذى ينفجر فى الحياة اليومية فى صورة رياح شديدة ، والعصبية التى تنتاب بلدا تعيش فى حالة من الوهن العصبى الذى ساد وانتشر على الصعيد الوطنى كله ..

وكيف يمكننا أن ننسى أن هذه الدولة خاضت أربع حروب وأن وجودها قد تعرض للخطر ليس فقط من جانب جيرانها العرب ولكن أيضـــا من جانب عـــدد كبير من الدول وكيف نتجـاهل أن ممارسى الضغوط الذين تتفـــاوض معهم اسرائيـــل يقيمون تحركهم اســـتنادا الى ميثـــاق قومى يلزم الفلسطينيين الأعضاء فى منظمة التحرير الفلسطينين تصـفية دولة اسرائيل واقامة دولة علمانية وديمقراطية لا يجهل أحد طبيعتها اذا ما تذكر وضع من يتمتع بالحماية ، طبقا للحق الدينى وهو الوضع الذى يحدده الاسلام للأقلية اليهودية والمسيحية والقبطية وغير ذلك والذى تستند اليه أساسا حتى الآن الحياة والنبض السياسى فى العالم العربى ؟

وكيف تصدق أيضا التعايش السلمى بين اليهود والعـــرب عندما يشاهد رجل الشارع فى اسرائيل على شاشات التليفزيون المذابح التى حدثت فى أيلول الأسود فى عمان بين الاردنيين والفلسطينيين والتى عرضتها التليفزيونات العربية ، أو فيما بعد المذابح التى دارت بين الفلسطينيين والمسيحيين المارونيين فى بيروت ؟

أن التشدد ورفض التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية (الذى رفضته الكنيسست بعد انتخاب بيجين بأغلبية الأحزاب باستثناء الأحزاب الشيوعية وامتناع بعض نواب اليسار عن التصويت) والتمسك بالأراضى وتسلط فكرة الأمن ، كان له ما يبرره قبل زيارة الرئيس أنور السادات الى القدس فى التاسع من نوفمبر سنة ١٩٧٧ ، فى الخوف من العالم العربى « الذى يرفض الاعتراف باسرائيل ويكن لها العداء وهو الذى يحيط بها » وقد صرح ماكس نوردو فى عـــام ١٨٩٧ بينما كان يرسى أسس الدولة اليهودية المقبلة مع هيرتزل بقولة : « ولكن هناك عرب فلسطين وهذا ما لم

أكن أعرفه » . والآن ، ولت هذه المرحلة وانتهت ويدرك أغلبيـــة اليهود فى الوقت الراهن ضرورة أن تندمج بلادهم فى مســـاحة الشرق الأوســـط اذا ما تخلى العرب عن ادعائهم القائل بأنهم أصحاب المساحة كلها .

ومن جهة أخرى يمكن أن نخشى من أن تثير زيادة النزعة الاستعمارية ، التى ترعرعت فى الأراضى المحتـــلة منذ عام ١٩٦٧ سواء أثنـــاء حكم حزب العمل أو حزب بيجين شكوك العرب فيما تدعيه اسرائيل من رغبتهـــا فى اقرار الســـلام .

وفى الحقيقة فان هذا الصراع يعد تافها ومثقلا بالمتناقضات التى يتعذر التوفيق فيها بينها لأن هناك شعبين يدافعان عن حقين مطلقين ومتناقضين ولأن الشعبين قد جعلا من كلمة شـــاريم وايزمان ، وأول رئيس لدولة اسرائيل « ان الذكرى حق » شعارا لكل منهما أنهما شعبان يعيشـــان على ذكرى موتاهم أكثر مما يعيشان لتحقيق آمال أطفالهما .

بيد أنه فى البداية ــ حتى لو أسىء تقدير مدى المشكلة العربية ــ تمثل حلم مؤسسى الصهيونية فى انشاء مجتمع مثالى عادل ومتفتح مع بعض الاتجاهات الابوية اللا واعية .

وهل بعد ذلك Montenegro آخر ؟ ابدا هكذا صرخ ارتور روبين مدير الوكالة اليهودية فى فلسطين فى العشرينات « نعم أن دولة اسرائيل ستعيد الفخر لكل يهودى وستحقق له الفائدة الاجتماعية التى كان يفتقر اليها فى مجتمعات الشتات » . وكانت الشعارات الرئيسية تتمثل فى التمرد على العمل وتجميع المهاجرين ونهضة الأرض ــ أنها الاشتراكية المتحدة من ماركس ومن أشياعه .

وتبدد الحلم أفلا تصبح اسرائيل على حـــد ما قاله اموس أيلون مجرد متحف لأفكار القرن التاسع عشر يقام وسط ديكورات القرن العشرين ؟ هل ستصبح مثل مسرحية لتشيكوف اعاد دورينمات كتابتها ؟ وعلى أية حال فأن الايدولوجية القديمة لم تعد تؤثر على الواقع ! فلم تعد تسحر الشباب وستظل غريبة عن الطبقات الجديدة القادمة الى اسرائيل والمدفوعة برياح التاريخ القاتلة أكثر منها برغبتها فى الرحيل عن بلاد المهجر مثلما كان حال الرواد الاوائل الذين تركوا فى بداية هذا القرن ، مدارســـهم وجامعاتهم ومجتمعات الفيتو وقراهم وعائلاتهم للحضور الى اسرائيل من أجل « البناء والتشييد » .

وقد طرأ على الصهيونية ما يقوض كل الايديولوجيات المجسدة : تآكل السلطة وغروب الطاقات وتلقى صدمة الواقع والشعور بحلول التعب بعد النضال ، والغفلة بعد المرض والعبء بعد الرحمة . أو كما يقول مارتين بوبر بوضوح : « أن ما كان يمثل فى الأصل امرا يتمسك به اليهود الفقراء قد أصبح هواية لليهود الأغنياء » .

وقد أسهمت الفضائح الكثيرة التى توالت خلال الأعوام الأخيرة فى التعجيل بتبديد شعارات الأمس .

الفضــــائح

ولا ترجع سيطرة حزب العمل على الحياة العامة لاسرائيل الى الأعوام الأولى لنشأتها فقط .. فمنذ الثلاثينات وفى معـــاهد المنظمة الدولية للصهيونية والوكالة اليهودية وفى « اليكوف » (وهى الجـالية اليهودية التى كانت تقيم فى فلسطين فى عهد الانتداب .) أستولى حزب الماباى برئاسة دافيـد بن جوريون على زمـام الأمور منتصرا على الأحزاب الصهيونيـــة العامة والتحريفية التى يميل قوامها الاجتماعى الى أن يكون تجسيدا لقوام الطبقات المتوســـطة .

وفى بداية عهده كان حزب الماباى يضم العمال ويدافـع عن مواقفهم الطبقية وذلك طبقا للتقاليد الماركسية لمؤسسيه الأوائل وهم أ. د. جودون دبير بورشوف (الذى شكل الجنـــاح اليســـارى لحزب الماباى) وبيرل كاتزنبلسون واسحـــاق تابينكى وتحت رعاية بن جوريون ما لبث « الحزب العمالى » ، الذى افتخر حتى الآن بصفته البروليتارية أن أصبح سريعـــا حزبا للجماهير وتوضح فقرة من كتاب نظرى « للنبى المسلح » العجوز هذا الانتقال « من تمثيل طبقة الى تمثيل الشعب » . وسرعان ما صـــور كاهن سدى يوكر مفهوم « ولاية الدولة على الطبقة » .

ومن جانب آخر ســـيطرت الحركة الصهيونيـــة العماليـــة سريعا على المنظمات الحيوية مثل منظمة الهستادروت (الاتحاد العام لعمال اسرائيل) التى تشكل النقابة وصاحب العمل معا ، وذلك بوساطة المؤسسات الكثيرة التى انشأتها فى مختلف المجالات مثل الصحة والتعليم والاسكان واللهو . ولفترة طويلة وبصورة واسعة حتى يومنا هذا تخضع الحياة اليومية لهذه العلاقة مع المؤسسات المنضمة للحزب : فيولد الانســـان ويحيا ويتغذى ويلبس ويسكن ويتعلم بفضل الخدمات التى تعتمد بشكل كبير على هذه النقابة والتى لم يستطع حزب الليكود المنتصر فى ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ أن ينتزعها من العمال .

وحتى عهد قريب ــ فى نهاية حكم جولدا مائير ــ كان الشعار الذى نادى به بن جوريون هو : « الحكم بدون الجيروت وبدون الشيوعيين »

بمثابة قانون . ويشير بذلك الى أن قاعدة الائتلاف الحكومى كان لها أساس وطنى حيث ان الأحزاب الصغيرة التى كانت تنضم الى حزب العمل كى لا تختفى فى حزب المعارضة كانت لا تعترف سوى بحزب ماباى الذى اصبح فيما بعد حزب الافودا (حزب العمل داخل الماباى) .

واستمر الحال كذلك لدرجة ان الأسلوب السياسى للحياة العامة فى اسرائيل قد تشكل لمدة طويلة بالصهيونية الاشتراكية وعقلية قادته ـ اغلبهم قادمين من نفس المدن الصغيرة فى بولندا وروسيا ـ وطريقة حياتهم المتقشفة المصبوغة بنفحة عمالية تثير اليوم ضحك مجتمع أصبح اكثر وقاحة . بيد ان هذا الأسلوب قد تشكل بصفة خاصة بفضل « الهيمنة العمالية التى يدافع عنها بشدة حزب اصبح مع الأعوام حزب الطبقة المتوسطة ، حزب « يأكل كل شىء » تعرفت فيه جماهير المواطنين المحافظين على نفسها وأتاح فرصة انتشار حب الغير وحب الأقارب وكذلك مولد طبقة جديدة من « الابارتيشكى » على اسوأ طريقة بولشفية ، يعتمد وجودها واعانتها فى المقام الاول على رضا سكرتيرى الاتحادات والأقسام واللجان والأنظمة الأخرى التى نشرها الحزب فى الدولة بأجمعها .

ولم يساعد تطور « الكم » على التجديد الايديولوجى أو الجرأة الفكرية . لدرجة ان البعض ومنهم « اموس اليون » أستطاع أن يكتب وهو على حق فى ذلك ، ان المتمردين القدامى على القدر قد أصبحوا قدريين بدورهم . واتجه القادة القدامى الى انتهاج سياسة التشدد حيال العرب ولم ينصتوا الى مطالب أو مشاكل الطبقات الاجتماعية الجديدة وأغلقوا أنفسهم فى حصون السلطة وفى مراكزهم القوية وكانوا لا يتمتعون بالجرأة فى تحليلاتهم السياسية وتبع القادة القدامى والذئاب الشابة فى الحزب فى قلعة ضخمة تعادل الانطواء النفسى والسياسى . ومنذ ذلك الحين قاموا بأى عمل للاحتفاظ بالسلطة وفى بعض الأحيان للاستفادة منها مستخدمين أحط الوسائل : مثل شراء الأصوات فى الانتخابات ، وتحويل الاموال العامة الى صناديق الحزب والتجسس السياسى داخل الحزب نفسه وبين الروافد المتنافسة وممارسة الرشوة ونشر الافتراءات ضد الأعداء السياسيين . ان القائمة طويلة جدا لدرجة انها أسهمت كثيرا فى اندحار حزب العمل فى ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ .

ومع ذلك ، فان الأحزاب العمالية كانت قد تلقت ما يشبه الانذار اثر « زلزال « حرب كيبور . فعلى الرغم من الهدنة التى حظى بها نظام

الحكم القائم فى مجال الانتخابات بذل شارون اعتبارا من اليوم التالى للحرب مباشرة جهوده من أجل تجميع قوى المعارضة فى بديل ـ هو ليكود ـ لحزب العمل الذى يفقد اعتباره بصورة مطردة ، بيد ان الخلافات الداخلية والصراع على القمة من اسحاق رابين وشمعون بيريز وبصفة خاصة الفضائح الكثيرة التى تنفجر تباعا ، لم تترك لهذه الأحزاب السياسية فرصة التقاط الأنفاس .

أن طول الفترة التى قضاها العماليون فى السلطة قد دفعت عناصرهم السياسية المستهلكة الى مقاعد المتهمين فى المحاكم وزنزانات السجون ومقاعد الأقلية البرلمانية أو صحراء النسيان المتمثلة فى المعارضة . أن صوت الشعب هو صوت الله .

وعندما تولى اسحاق رابين السلطة فى يونيو سنة ١٩٧٤ خلفا لجولدا مائير ، تنبأ له المراقبون السياسيون بمستقبل باهر وأعلنوا عن قدوم عهد جديد لحزب العمل العجوز .. لقد كان رابين صانع انتصار الأيام الستة ـ على الرغم من التقرير الذى كتبه عزرا وايزمان وانتشر فى الخفاء والذى اتهم فيه رابين بأنه ضعيف الشخصية ـ وكان سفيرا ممتازا فى الولايات المتحدة ويقول البعض أن الحكومة الأمريكية تنصت لآرائه . ومنذ توليه السلطة صرح قائلا : « لن تستخدم السياسة التى سننتهجها مقياسين ولا ميزانين . سوف نبذل جهدنا لتطبيق العدالة حتى ولو تعلق الأمر بسياسيين سقطوا » ..

أى أنه ستتم التضحية « بالأبقار الثمينة » (وهم الأشخاص الذين لا يمكن المساس بهم) على حد تعبير رابينوفيتش وزير المالية الذى خلف بنحاس سابير . ولا شك فى أن أول هذه الشخصيات من وجهة نظر أبينسوفيتش كان سلفه سابير .. ومنذ توليه الوزارة ظل الوزير الجديد يثير الشك فى ادارة بنحاس سابير الذى كان يدير ، فى الحقيقة ، وزارة المالية مثلما يدير صاحب محل فى القرية محله الصغير ، متلاعبا بالمليارات فى دفتره الصغير الأسود حيث كانت تقيد بنود الميزانية .

وقد أمكن لرابينوفيتش أو يقول أن الحكومة الجديدة قد أنهت عهد « مجلة الشعب ، وكان يعنى ان الاصلاح الضريبى الذى أقره سيساعد على « تطهير الجو العام » وتلك طريقة أخرى للاشارة الى أن بنحاس سابير لم تواته الشجاعة لاتخاذ اجراءات اقتصادية أكثر صراحة .. واكتفى

هذا الأخير بالاجابة على هذا الاتهام قائلا « عندما توليت الوزارة عــام ١٩٧٠ لم أجد سوى ٣٧٠ مليون دولار فى خزانة الدولة ، ولدى مغادرتى تلك الوزارة تركت بها مليارا ، ٦٥٠ مليون دولار » .

ولم تكن هذه الانتقادات الأولى سوى مجرد مناوشـات اذا ما قورنت بسلسلة الفضائح التى وقعت خلال السنوات الثلاث التى تولى فيها رابين الحكم .. فالواقع أن الجمهور ، الذى يعانى من فضــول مرضى تغذيه الصحافة المنطلقة ، كان يرى ويسمع ما يجعله فى دهشة مطردة . فقد تلوثت أسماء أكثر الشخصيات الاسرائيلية حظوة ، الواحد تلو الآخر . ومن المجدى أن نتوقف عند الدور الذى تلعبه الصحافة الاسرائيلية الحرة والواسعة الانتشار (تعد النسبة المئوية للتوزيع مقدرة بالفرد الواحد من أعلى النسب فى العالم) والتى تستقى معلوماتها من أفضل وأسوأ المصادر الصحفية المثيرة على الطريقة الأمريكية . فلو كانت فضيحة مماثلة لفضيحة ووترجيت قد حدثت فى اسرائيل لأسفرت عن نتائج فتـاكة ان الاسرائيليين يقرأون كثيرا وربما يكتبون أكثر مما يقــرأون . ويتعـايش اليمينيون واليساريون فى نفس الصحيفة ويهاجمون بعضهم البعض من صفحة الى أخرى وبنفس التعطش الى الحقيقة والطهر الخيالى .. وتقدم الأذاعة والتليفزيون الدراما النفسية الحقيقية للمشاهدين الذين تطيب لهم مثل هذه الفقرات التى ترغم الرجال المعنيين على الادلاء بشهادات علنية والتى لا تشبه فى شىء الحضرية التقليدية التى تميز الأذاعــة والتليفزيون فى فرنسا . وفضلا عن ذلك كان يتم القاء الضوء العام على شئون كثيرة بمجرد أن يتقــدم صحفى بشكوى ضد هذا أو ذاك من الشخصيات ويعقب ذلك مختلف التظلمات وأقوال الشهود (الذين تكون أسماؤهم مجهولة فى معظم الاحوال) التى تسجل طيلة الساعات الأربع والعشرين لليوم على فيشة التسجيل الاوتوماتيكى فى الادارة الوطنية للبوليس .

ووقعت الفضيحة الأولى فى يوليو سنة ١٩٧٤ وهى المتعلقة بالبنك الانجليزى ــ الاسرائيلى .. أن الشبهات التى تحول حول هذه المنشـأة المصرفية لم تمنع مدير البنك من ايداع مبلغ ٣٠ مليون مارك و١٠ ملايين فرنك فى فرع البنك بلندن .

وقام البنك فى عهد ليهوشوا بن سيون بمضاربات تتســم بالمغامرة وتتعلق بأسعار بيع العملات والمعادن عن طريق شركات لا وجود لهــا فى الواقع . وقد أدت هذه العمليات الى أغلاق البنك . وتبدد مبالغ يقــدر

بحوالى ٢٠٠ مليون ليرة اسرائيلية فى هذه العمليات وقد حكم على مدير البنك بالسجن مدة اثنى عشرة عاما لأنه سرق مائة مليون دولار من رأس مال البنك وأفرج عنه فى اكتوبر سنة ١٩٧٧ . لأسباب صحية . ويقول البعض أن علاقاتة مع عدد كبير من رجال الحكومة الجديدة لها صلة بهذا الاجراء . وعلى أية حال تسبب عدم حذر السلطات المالية للدولة فى ضياع أموال عامة لم تقدر قيمتها بعد .

وما انتهت مشكلة البنك حتى ظهرت فضيحة جديدة تتعلق بفرع شركة للقطاع العام وهى شركة « فيرى » التى بلغت خسائرها من المشروعات التى نفذتها فى الخارج خلال أعوام ٧٠ ، ١٩٧٤ ما يقرب من مائة مليون ليرة . وقد تم بيع هذه الشركة المتخصصة فى مواسير المياه فى عام ١٩٧٢ لشركة « سوليليونية » وهى فرع من شركات القطاع العام للهستادروت وتناولت الشكوك التى أثيرت من جراء افلاس شركة « فيريد » مجالا آخر غير المجال المالى يتعلق بالسياسة . فاذا كانت الهستادروت هى القلعة التى يحميها العماليون ، فهل استخدمت الخسائر الضخمة للشركة والتى غطتها النقابة لدى شرائها لها فى تمويل صناديق حزب العمل ؟ ان هذا السؤال سيظل مطروحا لمدة طويلة ..

وادى أفلاس « انتر ناشيونال كريدى بنك » فى جنيف الذى يملكه سور تيبورردزنبوم الى الكشف عن سلسلة من الفضائح لن يكفى كتاب باكمله لشرح أساليب المضاربة والتزوير وانشاء الشركات الوهمية وممارسة الرشوة والسرقات التى مارستها مجموعة أشخاص مشهورين من المديرين — وأشهرهم مشيل تسور الذى حكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عاما — فى شركة « صندوق اسرائيل » وهو صندوق للاستثمارات العامة يضم مستثمرين من يهود الشتات من بينهم البارون أدموند دى روتشايلد .

وتفاقم سوء الجو العام المحيط بمختلف هذه العمليات ومس جميع الأجهزة الكبرى فى الدولة التى اتهمت الواحدة تلو الأخرى بأنها مهدت السبيل للجوء الى الخداع وقبول الموظفين للرشوة حتى وصلت الاتهامات الى حصن وزارة الدفاع ، وهو الذى كان بعيدا عن النقد .

ووضعت ثلاث فضائح أخرى اللمسات الأخيرة لاحتضار سلطة العماليين : وتلك هى قضايا بادليين وأدنير وأخيرا قضية رابين نفسه .

وكان أشير بادلين ، الرجل النموذجى لحزب العمل ، وذلك الانسان المرح رغم تجاوزه الخمسين عاما قد مضى حياة طويلة كرجل عام قادته من العمل الجاهد كمناضل فى خلية الى عتبة منصب محافظ بنك اسرائيل بعد أن شغل منصب رئيس صندوق التأمينات الصحية الهستادروت الذى يكفل معظم الخدمات الصحية العامة فى اسرائيل . وكان على وشك أن يعين محافظا لبنك الدولة (وهو منصب يوازى منصب الوزير) ابتدا من أول نوفمبر سنة ١٩٧٦ عندما فجر الصحفى أيجال لافيف الذى يعمل فى صحيفة هاعولام هازى (وهى صحيفة أسبوعية سياسية ساخرة يديرها النائب السابق أورى أفينرى ولا ترحم المنحرف الثرثار ولا الاباحية التى تحولت الى أمر شائع ومحبب) ، وكشف عن فضائح الطفل المدلل لحزب أفودا . فما هى التهم التى وجهت الى هذا الرجل الذى يعترف ببساطة انه يحب الحياة الرغدة ، والذى يلقى بأموال طائلة على موائد القمار فى لاس فيجاس والذى يظهر دائما فى المجتمع بصحبة عشيقاته المتتاليات — ومن بينهن محاميته — والذى يصرح فى أحاديثه الى التليفزيون بأنه ينتمى الى الطبقة الراقية لكى يخفى خطاياه الواضحة ، لقد اتهم مرة أخرى بالمضاربات على الأراضى وفى العقارات وباختلاس أموال الدولة .

وقد تركته الدولة يواصل المفاوضات الشاقة مع الممرضات اللاتى كان اضرابهن من أقسى الأضرابات التى عرفتها اسرائيل ، ثم القى القبض عليه وحكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات .

كما فقد أعز أصدقائه وهو ابراهام أوفير وزير الاسكان (الذى تشبه حياته العملية حياة يادلين بشكل غير عادى) اعتباره وحياته فى آن واحد .. ويرجع عهد الاتهامات التى وجهت اليه الى الفترة التى عمل فيها مديرا لشركة الاسكان التابعة للهستادروت وتتعلق بقصور خدماته وادارته السيئة والامتيازات التى خص بها أشخاصا عاديين من أهله أو المقربين اليه ..

ففى الثالث من يناير سنة ١٩٧٧ ذهب أوفير الى شاطىء البحر بالقرب من هرزليا وانتحر باطلاق الرصاصة على رأسه . وفى هذه المرة لم يدن المتهم بيد أن موجة الاشاعات التى انتشرت وما أبداه زملاؤه من أعضاء الحكومة أو الحزب من عدم تعاطف ، قد دفعت بهذا الرجل الى الانتحار . ولن يتسنى لأحد معرفة ما اذا كان أوفير مذنبا أم لا ، حيث أغلق ملف قضيته فور الأعلان عن وفاته ..

وفى النصف الأول من مارس سنة ١٩٧٧ فأن أسحاق رابين (الذى رأس حكومة انتقالية تتولى السلطة الى أن تجرى الانتخابات فى شهر مايو ، وذلك بعد اقصاء وزراء الحزب الدينى فى شهر ديسمبر قام بزيارة لرئيس الولايات المتحدة الجديد جيمى كارتر .. وذكر الملحقون الصحفيون الاسرائيليون أن الرئيس الأمريكى أبدى تفهما كبيرا حيال وجهات النظر الاسرائيلية وأقام علاقات بالغة الود مع أسحاق رابين .

ومع ذلك فسرعان ما أعلن جيمى كارتر فى أول تصريح له ، ضرورة انشاء « وطن » للشعب الفلسطينى وعودة اسرائيل الى حدود سنة ١٩٦٧ وبعد انتخابات مايو لم يستطيع بيجين الا أن يعاتب منافسه السابق لأنه اخفى عن عمد اختلاف وجهات النظر بينه وبين كارتر لأسباب تتعلق بالانتخابات .

وفى العاشر من مارس ذهب ثلاثة من موظفى السفارة الاسرائيلية الى النبك الوطنى فى واشنطن للحصول على مرتباتهم الأسبوعية وأعلن لهم موظف الخزينة وهو يبتسم بطريقة بلهاء : « لقد زارتنا سيدتكم الأولى أمس . انها رائعة الجمال حقا » .

ولم يتطلب الأمر من الصحفى ــ صحفى مرة أخرى ! ــ دان مارجالت من صحيفة هاآرتس الذى كان يعمل فى واشنطن ، سوى أن يطلب أيداع مبلغ خمسين دولارا فى حساب مدام رابين كى تنفجر المشكلة بأكملها . وتحت اعين المراسل المندهش كتبت موظفة الخزينة على ظهر كراستها رقم الحساب وهو ٤٦٩٨٥٥٣ . وثمة شك فى أن يكون الصحفى قد حفظ الرقم عن ظهر قلب .

ورغم الزوجان أن حساب ليا رابين لم يتجاوز ۲۰۰۰ دولار ــ ۲۰ الف دولار فى الحقيقة ــ وأنهما فتحاه لتغطية النفقات الأخيرة لاقامتها فى واشنطن حيث كان رابين سفيرا لبلاده .. فهل كانت ليا رابين تجهل القانون الذى يحرم على الاسرائيليين فتح أى حساب فى الخارج ؟ . وهل كان رابين ...) يجهل بدوره وجود هذا الحساب ؟

ويحمل أسحاق رابين فى خطاب له نقله التليفزيون ــ واجمع المراقبون السياسيون انه كان أفضل الخطب التى القاها فى حياته السياسية ــ نصيبا من المسئولية فى أخطاء زوجته وقدم استقالته .. وهبط اسمه بناء على طلبه من رأس القائمة الى المركز العشرين بين مرشحى الحزب

وتولى شيمون بيريز رئاسة الوزراة بالنيابة الى حين اجراء الانتخابات فى ١٧ مـــايو .

وأخيرا تحقق حلم شيمون بيريز ــ ولكن فى ظل أية ظروف ! ذلك الحلم الذى راوده منذ بداية حياته السياسية حينما كان مع موشى ديان أحـد الحيطين ببن جوريون العجوز . وأخذ المتخصصون فى المسائل الانتخابية يقدرون حجم فرص الانتصار المتاحة أمام العمال بعد أن أصـــبح على رأسهم رجل عرف بمواقفه المتشددة وربما استطاع أن يكسر شوكة الليكود المتطلع الى السلطة . أفلم يهزم بفارق بسيط فى المؤتمر الذى عقده حزب العمل قبيل الانتخابات لاختيار مرشحه حيث حصل على ١٤٠٤ صـــوتا مقابل ١٤٤٥ صوتا حصل عليها اسحاق رابين ، منافسه الذى لم يلازمه الحظ طويلا ، لقد قامت منافســـة بين الرجلين ، على القمة منــــذ الأيام الأولى لتولى رابين الحكم قبل ذلك بثلاث سنوات ..

صراع على القمة بين رابين وبيريز

ومن المعروف أن شيمون بيريز يمثل نتاجا نقيا للتكنوقراطية لا تهمه الايديولوجية كثيرا ويتبنى الأسلوب العملى ، وكان عضوا فى جناح رافى الذى يمثل الاتجاه الأكثر يمينية داخل حزب العمل . وكان من الشبان الثوريين واسهم فى ادارة وزارة الدفاع بالتعاون الوثيق مع بن جوريون . ويشتهر بيريز بولائه لفرنسا نتيجة ذكريات قديمة يملؤها الحنين الى شهر العسل الفرنسى — الاسرائيلى والى عمله المشترك مع الفرنسيين فى باريس خلال المشتريات الكبيرة الحجم من الأسلحة فى الخمسينات من القرن الحالى ..

بيد أن بيريز يعد أكثر تشددا من زملائه أعضـاء الحزب فيما يتعلق بمستقبل الأراضى ولا يؤيد تقديم التنازلات بل ويناصر اقامة المستوطنات فى الضفة الغربية لنهر الاردن . وقد تزايد عدد المستوطنات التى لم تقمهـا الحكومة وكان ذلك يحدث فى معظم الأحوال ضد رغبة أسحاق رابين والحمائم من حزب العمل وعلى مسئولية بيريز بوصفه وزيرا للدفاع .

وبدأت المنافسة بين الرجلين فى المؤتمر الأول الذى عقده الحزب لاختيار خليفة جولدا مائير التى أنسحبت أثر شعورها بالتعب وخيبة الامـل من جراء عمليات التشكيك فى سلطتها . وفى هذا المؤتمر ايضا ، كان الفـارق بين الأصوات التى حصل عليها الرجلان ضئيلا للغاية حيث بلغ ٤٤ صوتا . ولم يمنع ذلك شيمون بيريز (الذى أصبح الرجل الثانى فى الحزب) من انتهاج سياسة شخصية بحته هاجمها رئيس الوزراء عدة مرات ، ذلك أن تشدد بيريز فيما يتعلق بالأراضى كان يهـدد بدفع حزب المابام الأقرب الى اليسار — الى خارج الائتلاف الحاكم .. وقد انعكست الخلافات بين الرجلين على الحزب من الداخل فانقسم الى معسكرين بين مؤيدى بيريز وانصـار رابين .

ولم يخف بيريز نواياه عند اقتراب موعـد انتخابات عام ١٩٧٧ . فقـد أبد مناقشة « ديمقراطية » جرت داخل الحزب ورشح نفسه ضد رابين رئيس الوزراء الذى كان مؤيدوه يرون انه يجب أن يتم تعيينـه بصـورة اجماعية حفاظا على « وحدة الحزب » .

وقد أتاح القدر الساحر للذئب الشاب الذى انهزم مرة أخرى عشية الانتخابات فرصة أخيرة بقيادة حزبه الى النصر ولكنه كان مجـــرد منفذ للوصية .. وعاد لينتظر العودة المحتملة الى السلطة مثله فى ذلك منافســه أسحاق رابين الذى لم ير بعد أن مجال عمله العـــام قد انتهى ، أو ربما ليبحث ـ من يدرى ؟ عن مخرج مثل زميله السابق موشى ديان وأيضـــا وبلا شك أبا أيبان الذى كان زميله فى المواجهة مع رابين تطلعا الى ممرات السلطة التى يشغلها الليكود الان ؟ .

عملية عنتيبى

بينما تبددت الآمال التى علقت على مجموعة رابين – بيريز ، وقع حدث حقق لهذه المجموعة آخر توهج لها : وهو عمليــة عنتيبى فى صيف ســنة ١٩٧٦ .

فقد اختطف الفلسطينيون والالمــانيون طائرة فرنسية وارغموها على الهبوط فى مطار كمبالا ، حيث احتجزوها بالتواطؤ مع السلطات الأوغندية . وبلغ الأمر بعيدى امين ، الشرس الذى يشين قارة بأكملها ، حد زيارة رهائن الطائرة المحتجزين فى صالات المطار الذى بناه الاسرائيليون فى فترة التعاون الاسرائيلى – الأغندى . الم يحصل عيدى امين على شارات رجال المظلات التى يحملها بكل فخر بعد ان أمضى فترة تدريب فى صفوف جيش الدفاع الاسرائيلى ؟

وبسرعة فائقة قام الارهابيون الألمــان بعملية فرز للركاب حيث فرقوا بين اليهود وبين الآخرين . ومنذ ذلك الحين اقتنعت السلطات الاسرائيلية بعدم جدوى اجراء اية مفاوضات لأن التفاوض لن يحول دون تنفيذ القرار الخاص باعدام الرهائن اليهود وهو القرار الذى تأكدت صحته بعد الافراج من الركاب عن غير اليهود .

الفرز : ان الكلمة اصابت الرأى العام الاسرائيلى بصــدمة لأنها توقظ لديه مرة أخرى ذكريات اليمة عن عمليــة الفرز التى أجراها فيما مضى الألمــان ايضا وهكذا كان التاريخ يكرر نفسه وكأنه مسرحية مأســاوية فمازالت ذكرى النازية تؤلم هذا الشعب الذى قرر الا يكون لعبــة فى يد القدر ، مهما كان الثمن ، وأن يرسى ضرورته الذاتية ويقود مصيره كيفما شاء وستكون عملية عنتيبى عملية مضادة لعملية أوزويتشى . أوزوبتش حيث كان يتم انتقاء الذين سيحرقون فى الافران وترك الذين ســيؤجل اعدامهم مؤقتا بسبب الأعمال التى يقومون بها .

عندما كان أطفالنا يبكون على القنصلية
كان العالم يلزم الصمت

انها أبيات الشـــاعر الاسرائيلى ناتان التيرمان وتدل ، أفضل من أى تحليل ، على الشعور بالعزلة الذى يلازم شعبا اصبح ــ اوهو الى الابد ؟ ــ حذرا تجاه العالم ويقول الذين نجوا من معسكرات التعذيب انه ــ اذا كانت عملية مثل عملية عنتيبى قد وقعت من قبل ، فربما ما كتب لعملية اوزويتش ان تحدث ..

وقد تركت الجراح التى خلفتها عملية أوزويتش بصماتها على الحساسية اليومية للاسرائيليين الذين أكسبتهم التجربة صلابة والذين فقدوا بلا شك كل ميل الى انتظار الخلاص وأصبحت ارادة الحياة والبقاء قوية لديهم . وهم يفضلون التضحية بأنفسهم على الموت اذعانا لارادة غيرهم . تلك هى روح الماسادا .

وبعد حرب سنة ١٩٦٧ ظهر كتاب بعنوان (حوار بين المقاتلين) وصف الشكوك والآمال والتساؤلات التى عاشهـا الجنود الذين نجوا من نيران الحرب . وانتشرت نكتة بين آلاف النكت ، تقول أن احد القادة قال « أعتقد أن الحمل سيعايش الذئب معايشة سلمية فى نهاية التاريخ ، مثلما وعدنا الأنبياء . ولكن حتى فى هــذه الحالة أفضــل أن أكون أنا الذئب » .. ولا يحتاج ذلك الى تعليق .



ودخلت عملية تحرير الرهائن بوساطة الفدائيين الاسرائيليين التاريخ . ومما لا شك فيه انها فتحت فصلا جديدا فى الســياسة التى تنتهجهـا الحكومات تجاه الارهاب الدولى .. وثارت موجة من الاعتراضــات على المبادرة التى اتخــذتها اسرائيــل لتحرير رعاياها ــ على الرغم من المديح الرسمى النادر وموافقة الرأى العام العالمى الذى ادهشــته جراة الجنود الاسرائيليين الشبان . وبعد انقضاء عام على عملية عنتيبى حظيت العملية التى قام بها الكوماندوز الألمــان لتحرير ركاب طائرة تابعة لشركة لوفتهانزا كانوا محتجزين كرهائن بتأييد اجماعى وبامتداح كثير من الحكومات ومن بينها الحكومة الفرنسية ، التى لم تبد أى تشدد حيال الابتزاز الارهابى عندما أفرجت عن أبو داوود .

البديل المستحيل

استحلفك بالله أن تغير الحكومة تفكيرها
لأنى أوكد لك أن هذا التفكير سيقودكم الى
الهاوية))

اليكس دى توكفيل

خطبة فى الجمعية الوطنية

قبل ثورة عام ١٩٤٨ بفترة وجيزة

الصهيونية وتياراتها

غداة حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، فرض لفظ التغيير نفسه بقوة فى مصطلحات السياسة ونودى بهذا اللفظ السحرى بكافة اللهجات ، كما ظهر فى جميع المقالات الافتتاحية . فقد بدت خريطة اسرائيل السياسية حتى الآن ثانية كما ورثتها الدولة اليهودية عن المسرح القديم للسياسة الصهيونية دون أن تطرأ عليها تقريبا أية تغييرات .

فعندما كتب تيودور هرتزل – وهو ليبرالى تقليدى من القرن العشرين – عن الدولة اليهودية ، لم تكن النظرية التى صاغها وسميت بالصهيونية ترجع الى التوراة بقدر ما كانت ترجع الى مازينى وغاريبالدى . ومن المؤكد أنه كان يعى روابط الذكريات والحلم التى تربط الجماهير اليهودية بالدولة الاسرائيلية . ولم يكن الدافع وراء ذلك أية مهمة تبشيرية ولا أية نظرة اجتماعية واضحة . وانما كان الدافع صرخة « الموت لليهود » التى سمعها – وهو صحفى نمساوى يعمل فى باريس – فى فناء الكلية الحربية حينما كانوا يجردون القبطان دريفوس من رتبه ، وقد كان دريفوس ملهم فكره وعمله .

فمنذ عام ١٨٩٧ وهو تاريخ أول مؤتمر صهيونى انعقد فى مدينة بال وحتى العشرينات كانت الصهيونية تيارا سياسيا يرتبط الى حد كبير بموجة يقظة القوميات . فبقيام الثورة الروسية فى عام ١٩١٧ ، وانبعاث الآمال المتولدة عن الاشتراكية ، ونمو النظرياتالكبرى للتقدم الاشتراكى – التى تأثر بها بعض يهود أوروبا – رغم انهم لم يكونوا روادها – كان هناك عدد كبير من أولئك الذين يريدون الجمع بين الصهيونية والاشتراكية .

وبنفس الصورة وكرد فعل لذلك ظهرت نزعة صهيونية أكثر وطنية فى صورة « تقليدية » ، كان مناحم بيجين احد انصارها . ولم تتردد هذه الصهيونية فى استخدام شعارات أكثر تشددا من برامج المعتدلين « التى تطالب بأدنى حد من المطالب » وأكثر تشددا من مواقف الحركات الوطنية (التى تطالب بزى موحد ، وتنظيم الاستعراضات العسكرية ، والتدريب شبه العسكرى) . وأخيرا ظهر معسكر دينى تبنى مضمون الصهيونية

الدينى المؤثر بهدف الربط بين الدين اليهودى وضرورات قيام دولةحديثة وأخذ يرسخ جذوره فى الحركة الصهيونية .

والتقت جميع هذه القوى - التى تغيرت الى حد ما - على مقاعد اول برلمان اسرائيلى .

ولكن منذ الثلاثينات ، وبفضل شخصية بن جوريون الملهمة ، ونشاط بعض الرواد الذين كانوا يحلمون بالخلاص الاجتماعى بالعودة الى أرض اسرائيل ، وخاصة بفضل بعض الانجازات غير العادية التى شكلت وجه اسرائيل مثل الكيبوتزات ، والتعاونيات ، وجماعات الدفاع الذاتى الخ .. بفضل كل هذا شكلت الصهيونية العاملة الى حد كبير المجتمع الاشتراكى الصغير ، وتركت بصمتها على جميع مؤسسات الدولة الجديدة التى انشئت عام ١٩٤٨ . الأمر الذى ترتب عليه اضفاء الطابع السياسى على الحياة العامة ، حتى داخل الجيش الاسرائيلى (ولا يخفى على أحد أن آريل شارون هذا الرجل الاسطورى لم ينجح أبدا فى تولى منصب رئيس أركان الجيش الاسرائيلى (تسمال بسبب تعاطفه مع حزب حيروت حزب بيجين) . كما ترتب عليه منذ المعارضة ويجدر بنا الا ننسى انه اكتنف الأعوام التى سبقت ميلاد الدولة الصهيونية جو أزمة سياسية خطيرة ومصادمات أخوية بين الاتجاهات المعتدلة (بقيادة بن جوريون) والاتجاهات الوطنية (بقيادة بيجين) . حتى ان المعارك التى شنت ضد البريطانيين ، وعمليات الاعتداء ، ومسلك جماعة الايرجون فى بعض العمليات كل هذا جعل بعض أنصار المعسكر العامل يصفون بيجين وأنصاره بأنهم «فاشيون» وظلت التمزقات وصكوك الحرمان لفترة من الزمن سمة من السمات المميزة للحياة السياسية الاسرائيلية .

ونذكر هنا مثلا من بين آلاف الأمثلة ان العجزة والمقاتلين فى حزب الاستقلال الذين قاتلوا بين صفوف الايرجون أو اليهى (أوجماعة شترن) التى تمخض عنها فيما بعد حزب حيروت حزب بيجين - وأرامل هؤلاء المناضلين الذين سقطوا فى معارك عام ١٩٤٨ لم تقم خزائن الدولة بصرف معاشاتهم الا بعد انتهاء الحرب بستة أعوام بفضل قانون عام ١٩٥٤ الذى صدر متأخرا . فى حين أن أعضاء الهاجانا (جيش الحركة العمالية) انضموا على الفور الى جيش الدفاع الاسرائيلى الجديد كما قامت الدولة بصرف مرتباتهم .

وحقيقة القوة ان الحركة العمالية فى اسرائيل اصبحت ـ من خلال احزابها ، ومؤسساتها ـ هى والدولة شيئا واحدا ـ الى حد تملكها لها ، كما يقول البعض ، والى درجة أن هذه الحركة لم تتخيل فى يوم من الأيام أن تفقد هذه السلطة .

ولكن عندما عهد العمل الديمقراطى بالحكم الى الخصم الأزلى يوم السابع عشر من شهر مايو عام ١٩٧٧ ـ فى مجتمع ظل يطبق النظام الديمقراطى بصورة سليمة رغم استمرار الحرب فيه ـ حينئذ اتخذت الحادثة صورة كارثة تاريخية .

فقد أخذ استغلال السلطة ، وأزمة الثقة ، ووهن الجهاز الحاكم ، والفضائح والفساد ، والعفن النفسى ، وقلة التجديد الايديولوجى ، أخذت كل هذه الأسباب تتكاتف مع بعضها لاسقاط الأحزاب العمالية .

وهكذا حل الاحتفاظ بالحكم بأى ثمن محل مبادرة وجرأة الآباء المؤسسين الذين أعطوا لاسرائيل أحدث سماتها واكثرها تطورا تلك السمات التى يعترف أبناؤهم اليوم بأنهم أول من خانوها فماذا عن الكيبوتز ؟ ان الكيبوتزات التى كانت بالأمس مجتمعا جريئا ، وثورة فى الحياة اليهودية والتى تشغل مراكز الصدارة فى الدفاع والخبرة الاشتراكية أصبحت اليوم نوادى مغلقة وجزرا للرجاء والسكينة الايديولوجية فى مجتمع متحرك متغير ونفوذها آخذ فى الاضمحلال رغم أن ابناءها لا يزالون حتى اليوم يقدمون للجيش قوات من خيرة قواته . وهم « أبناء حلم » اسرائيل كما وصفهم برونوبتلهيم .

وماذا كان مصير الهستدروت ؟ ان الهستدروت الذى كان بالأمس بوتقة سياسية واقتصادية حقيقية للامة الاسرائيلية وهى فى طور تكوينها اصبح اليوم حكرا على بعض الشخصيات البارزة الصغيرة التى فقدت صلتها بالطبقة العاملة . وظلت أعنف الاضرابات التى شهدتها اسرائيل فى السبعينات مثار خلافات مستمرة بين قيادة الهستدروت واللجان المتوحشة التى نشأت فجأة فى الموانى والمصانع والشركات .

ولم يختلف أولئك الذين تولوا الحكم بعد تلك الوجوه الأسطورية عن غيرهم من الساسة اذ أخذوا يعجلون بانهيار حزب أهلكته الخلافات ومساوىء أعضائه .

فبعد قيادة بن جوريون أو جولدا مائير التى لم يشاركهما فيها شريك نشب الصراع بين خلفائهم : فكان الالتحام بين رابين وبيريز بداية الانهيار

ولم يكفل هذا الصراع ممارسة الديمقراطية داخل هذا الحزب ، الذى تخللته الشقاقات ، وانما أوجد فيه خلافات لم يفق منها .

ومن جهة أخرى كان التحالف المؤقت مع حزب مابام داخل كتلة معراخ الائتلافية دائما موضع تشكيك دائم من جانب الحمائم فى حزب مابام الذين هالتهم المواقف المتشددة التى انتهجها شيمون بيريز .

ان حزب مابام الذى حاول فى بادىء عهـده الجمع بين الماركسية والصهيونية ، الى حد أنه بكى وفاة ستالين فى عام ١٩٥٣ قد خفف من اتجاهه نحو اليسار الى حد كبير الى حـد أنه اتجه دون أن يشعر نحو اشتراكية باهتة انحصرت داخل كيبوتزاته ولم يعد يقدم على أى مبادرة سياسية ذات شأن .

وترتب على تعايش حزب مابام مع حزب ماباى أن أصبح الأول مجرد قوة دعم . فأخفى زعماء هذا الحزب خوفهم من العودة الى المعارضة تحت شعارات بالية ، حتى أن المعركة من أجل الحـوار مع الفلسطينيين ضـد استعمار الأراضى كانت تدور خارجه وبوسـاطة رجال لم يعودوا معروفين فى مصطلحات « الصهيونية العمالية » القديمة .

« ان هزيمة ١٧ مايو تمت بتدبير منا » كان هذا قول دافيد هاكوين أشهر وجه من وجوه حزب ماباى .

« والدين سيد السلطة » هى كلمة يشاو ليبوفيتز الابن العاق الذى بلغ السبعين من عمره . وليبوفيتز رجل لا يلتزم بالتقاليد ، متشدد فى الدين اليهودى ، ولكنه فى خلاف دائم مع سلطات الدولة القائمة .

وهذه الكلمة رغم قسوتها الا انها على قدر من الصحة فيما يبدو . ان الحزب الوطنى الدينى الذى كان بالأمس عضوا فى الائتلاف الحـاكم مع حزب العمل ، والذى أصبح اليوم عضوا مع كتلة ليكود ففى هذا الائتلاف كان هدفه الوحيد الحفاظ على المكاسب التى منحتهـا السلطة للدين فى الدولة مثل احترام عطلة يـوم السبت حيث يعطل العمل بالمؤسسـات الوطنية ، ووجود مجموعة من المدارس الدينية المستقلة التى تقوم الدولة بتمويلها ، والاعفاء من الخدمة العسكرية بالنسبة لطلبة مدارس التلمود

والبنات اللائى يتبعن التعاليم الدينية ، والالتزام بأحكام الديانة اليهودية ، فيما يختص بالغذاء ، فى الأجهزة العامة الخ ..

فضلا عن أن حزب ماندال الوطنى الدينى قد ركز جهوده فى الأعوام الأخيرة على مشكلة اعتناق اليهودية ، ذلك أن مسألة : «من هو اليهودى ؟» مسألة تشغل بال المسرح السياسى منذ أن أثارها بن جوريون حينما استشار خلال الستينات مجموعة من الحاخامات والعلماء والمدرسين اليهود . وهو سؤال غريب يطرحه هذا الشعب الغريب الذى يبحث دائما عن مشكلات ليس لها حلول .. الا أن هـذا الأمر له اهمية خاصة وان « قانون العودة » ــ وهو قانون تنظيمى فى دولة لا يوجد بها حتى الآن دستور مكتوب ، وانما مزيج من القوانين اليهودية والتركية والبريطانية والفرنسية وحاليا قوانين اسرائيلية هذا القانون يسمح لأى يهودى يريد أن يكون اسرائيليا أن يصبح كذلك اذا ما تقدم بطلب بهذا المعنى عند وصوله الى اسرائيل . وعلى أية حال فالبطاقات الشخصية فى الدولة اليهودية تحمل هـذه البيانات : المواطنة الاسرائيلية : والجنسـية اليهودية (أو المسيحية ، أو الاسلامية ، أو الدرزية) .

ان القانون اليهودى التقليدى كما أعد فى التلمود الموسع والمقنن فى دستور الهالاخا يؤكد أن كل يهودى هو كل من ولد من أم يهودية ، وكذلك كل من اعتنق اليهودية وفقا للاصول ــ المعقدة والدقيقة ــ التى قررها الحاخامات فى تقنين بالغ الدقة . ورغم ان اليهودية قد مارست عبرالتاريخ أو على الأقل فى بعض مراحله عملية تبشـيرية هامة ، الا أن قلائل هم الذين يسعون اليوم الى اعتناق اليهودية . والحالات الأكثر رواجا بصفة خاصـة تلك المتعلقـة « بالزيجـات المختلطة » والتى يرغب فيهـا أحـد الزوجين اعتناق الديانة اليهودية التى يعتنقها الشخص الآخر . واليهودية اليوم ، وبصفة خاصة فى الولايات المتحدة تنقسم الى تيارات تعرف بمدى التزامها أو عدم التزامها بأحكام الدين . « والتيار المعتدل » « أو التيار الحر » على سبيل المثال لا يهتم بالاجراءات البالغة التعقيد التى يهتم بها المتشددون عند اعتناق اليهودية .

فهؤلاء الذين تبنى آراءهم الحزب الوطنى الدينى وكذلك المتشددون من تشكيل اجودات اسرائيل (هو تشكيل أكثر تشددا من حيث موضوع الالتزام الدينى) وهؤلاء يريدون أن يقر « قانون العودة » منح الجنسية الاسرائيلية لليهود الذين اعتنقوا الديانة اليهودية وفقا لدستور «الهالاخا» . ويستندون فى ذلك الى الاستمرارية التـاريخية والدوجماتية للديانة

اليهودية . ويدعون الى الحفاظ على وحدة الشعب وفقا لذلك القانون الذى أعطى – على مر القرون وفى جميع مناطق الشتات اليهودى – للديانة اليهودية تلك الصورة التى لا تزال تحتفظ بها حتى اليوم ، وعلى نحو لا يمكن للمستقبل نفسه أن يغير منها .

وعدا هذه النقطة التى ظلت مثار جدل حتى الانتخابات الأخيرة ، أيد الحزب الوطنى سياسة الحكومة التى كان الحزب يعتبر سندا لا غنى لها عنه . الا أن تحولا قد حدث بصعود نجم بعض الشباب المناضل بين صفوفه مثل زيفولبين هامر ، وزير التعليم الحالى أو اهرون أبو هاتسيرا وزير الأديان فى وزارة بيجين – الذين يؤيدون آراء وتصرفات المسئولين فى كتلة جوسن اعونيم (كتلة الايمان) ومعظمهم من حركات الشباب فى الحزب الدينى أو مدارسه .. وهم أكثر عينيه بلا شك من أولئك الذين كانوا فيما مضى يدعون الى الجمع بين اشتراكية رسل التوراة واتباع تعاليم الدين فى المستعمرات الدينية . وفى رأيهم أن أرض اسرائيل كلها أرض مقدسة وعد الله بها الأنبياء من سلالة ابراهيم واسحاق ويعقوب ، وهم يعتبرون اقامة المستوطنات فى الأراضى المحررة فى اليهودية والسامرة واجبا دينيا . وتحالفهم اليوم مع كتلة ليكود ليس بلا شك تحالفا عرضيا كما كان بالأمس تحالفا أوثق حيث يبشر – كما سنرى – بعودة الديانات اليهودية الى قوتها كدين وأيضا كايديولوجية بديلة عن الصهيونية العلمانية الانسانية ذات المطامع العالمية ، التى أسسها الشباب المتمرد فى روسيا وبولندا الذن جاءوا الى اسرائيل هربا من أسلوب حياة المنفى وقيمها التى كانت اليهودية جزءا لا يتجزأ منها .

فى هذا الجو الفاسد الذى اتسم به أواخر عهد حكومة رابين فى أشهرها الأخيرة ، لم يدهش الجمهور الاسرائيلى من ظهور نجم جديد فى سماء سياسة البلاد : ايجال يادين رئيس أركان الجيش الاسرائيلى (تسحال) الذى تحول الى علم الحفريات بعد خروجه من الجيش . فهذا الأستاذ الذى يناهز الثانية والستين من عمره ، والذى يشبه فى ملبسه وقلة هندامه السيد المزارع ، والذى لا يرفع من فمه أبدا هذا الغليون الذى لا يفارق الرجل الجامعى له اتجاهات لا يمكن التنبؤ بها ، فقد ولد فى القدس فى أسرة من أكثر الأسر ثراء بحى رهافيا البورجوازى وهو يعتبر فى نظر الشعب الاسرائيلى بصفة خاصة مؤسس احدى العبادات الوطنية الحقيقية وهى عبادة علم الحفريات . فقد اكتشف

عام ١٩٦٣ على راس جيش حقيقى من الطلبة الاسرائيليين والأجانب ، ومن المتطوعين من كافة طبقات الشعب الذين ضحوا بأجازاتهم من أجله، اكتشف ، تلك الأطلال الضخمة والآثار المثيرة لقلعـــة ما سادا فى صحراء اليهودية المطلة على البحر الميت .

وكانت هــذه القلعة المقامة على جبل صخرى يطل على مفترق طرق استراتيجى فى المدينة اليهودية القديمة آخر معقل من معاقل مقاومة اليهود للغــازى الرومانى . وسقطت فى عام ١٣٥ من عهــدنا . وقد روى لنــا فلافيوس جوزيف مؤرخ الثورة اليهودية الذى قتله الرومان ، هـــذا الانتحار الجماعى لآخر المحميات اليهودية الذى شمل أطفال ونساء وكهول ومقاتلين .

وعلم الحفريات هـــذا عبادة وطنية لأن الاسرائيليين يريدون بأصرار شبه مطلق العثور على آثار ماضيهم فى هذه الأرض الزاخرة بالأحداث التاريخية ، وذلك بحفرها لاستخراج أى شقفة فخارية منها ، وأى حجر يمكن أن يثبت ويؤكد صحـــة الشرعية التاريخيـــة لوجود متواصل على أرض يدور حولها جدال . والاسرائيليون يتشبثون بكل قواهم بهــذه الأرض التى تشهد بقاياها الجغرافية على ملكيتهم لها ، وان كانت الصورة الانسانية تؤكد بأنها لم تعد أرض مشاع .

وهى عبادة وطنية أيضا لأنه منذ اصلاح قلعة ما سادا اســتبدت بالأمة الاسرائيلية هذه الفكرة التى شغلت هذه الأماكن ، وهى « ان قلعة ماسادا لن تسقط ثانية » ، ذلك القسم الذى أقسمت به على هــذه الصخرة دفعة من وحدات صغيرة من الجيش قبل أن يتم استرداد حائط المبكى . ان فكرةقلعة ماسادا «التى يستشهد بها عادة لتأكيد صلابةشعب لايلين طالما أطاحت به أهواء التاريخ الدامية على الرغم منه ، ان هــذه الفكرة هى أولا رغبة هذا الشعب الأكيدة فى أن يحيا شامخ الرأس ، صلب العود .

وقد أعتبر ايجال يادين فى جوانب عديدة ديجولا آخر ، ولكن على الطريقة الاسرائيلية اذ يمكن الاستعانة به هو الآخر فى ساعة الأزمة .

ففى غــداة حـــرب أكتوبر عام ١٩٧٣ عقــد يادين اجتمـــاعا بلجنة « اجرانات » التى كلفت بالتحقيق فى « الاهمال » الذى دفع باسرائيل الى حافة الكارثة . ومنذ ذلك الحين اخذت حركات الاحتجاج التلقائية

تميل الى جانب هذا الجنرال عالم الحفريات على أمل أن يقرر تخطى الهوة التى تفصل بين عزلته الدراسية ومستنقعات السياسة .

وقد سنحت الفرصة لهذه الحركات بعد ظهور يادين فى احـــدى البرامج التليفزيونية الشهيرة بعنوان « موكيد » حيث أعرب عن وجهات نظر على الأقل جديدة ـ بعيـداً عن الاعتبـارات المألوفة الخاصـــة بعلم الحفريات ـ بخصوص الأزمة التى تقلق المجتمع الاسرائيلى قلقاً شديداً

واثر ذلك على الفـور زادت شـعبية يادين بسرعة فى اسـتطلاعات الرأى العام الذى كان يجهل حتى الآن وجود يادين وهرعت معظم الأحزاب ترسل اليه مبعوثين حاولوا ـ ولكن عبثاً ـ الاستفادة من هذه الجلسة المفاجئة .

ونجح مؤسسوا حركة شـينوى ، حركة التغيير ـ ومن بينهم امنون روبتشتاين ، الصحفى الشهير بصحيفة هارتس الصحيفة اليومية الكبرى المستقلة فى تل أبيب ، ومائير اميت رئيس المخابرات السابق ، وبعض الجامعيين ، وبعض كوادر القطاع الخاص ، والصفوة من التكنوقراطيين وكذلك بعض الشباب المناضل ، من أبناء بعض الدول العربية التى تسعى لحل مشكلات هذه الطوائف العربية المغبونة ـ داخل النظام السياسى الحالى ـ نجح مؤسسو هـــذه الحـركة فى ضم حركتهم الى الحزب الديمقراطى برئاسة ايجـال يادين . فمـا لبث أن اسفر عن مولد حركة « واسعة » الحركة الديمقراطية من أجل التغيير . التى أصبحت حركة ذات رواج وكانت أول مظهر لحزب جماهيرى جديد (وهى جماهير لم تتجمع فى المدن الشعبية بقـدر تجمعها فى الحرم الجامعى ، ومكاتب المحـامين والضواحى الأنيقة) . وكان أول تشكيل يفخر بتنظيم انتخابات داخلية سرية لتعيين مرشحيه فى قائمة الانتخابات . فقد كانت الأحزاب الكبرى فى الحقيقة تفضل حتى الآن أن تتم التوزيعات الدقيقة بين الجماعات فى سرية فى لجان محدودة من رجال الدولة ، أو فى اقتراعات رمزية برفع الأيدى حيث كانت النتيجة معروفة مقدما بسبب الصراع الخفى على النفوذ بين الأشقاء الأعداء فى نفس الحزب .

ومن نقاط القوة أيضا فى برنامج داش مطالبته باجراء اصــلاح انتخابى . فحتى الانتخابات الأخيرة كانت البـلاد تقترع فى اقتراع بصوت واحد فى جولة انتخابية واحدة ، تعتبر فيها البلاد دائرة واحدة عليها أن تختار قائمة وطنيـة . وبطبيعـة الحال لا يكون النـواب المنتخبون

مسئولين مباشرة امام الناخبين . ولكن اجراء انتخابات اقليمية قد تساعد على مولد جيل جديد من رجال السياسة ، جيل ينحدر من طبقات الشعب الجديدة جيل يعرف مشاكل هذا الشعب ، بدلا من أن تؤكد النظام الحالى سيطرة الأجهزة الحزبية على تشكيل البرلمان .

ولا شك أن انتخابات ١٧ مايو حين اعطت لحزب داشن ١٥ مقعدا لم تكن تشكل نصرا واضحا لكتلة ليكود بقدر ما كانت تشكل هزيمة لحزب يعراخ . والمقاعد التى انتزعت من الأحزاب العمالية تدل على تغير أصوات المواطنين الغاضبة التى قررت معاقبة نظام الحكم القائم ، خاصة وان ناخبى حزب داشن يتكون معظمهم من المجتمع العمالى التقليدى .

وبانضمام حزب يادين الى الائتلاف الملتف حول مناحم بيجين فى اكتوبر عام ١٩٧٧ سمح للحكومة الجديدة بأن تتمتع بأغلبية برلمانية معقولة ، وان توجه سياستها فى اتجاه لا يميل الى الحزبية كما ساد الاعتقاد عند تشكيل هذه الحكومة فى المرة الأولى حينما طرح بيجين الثقة على حكومته فى الكنيست يوم ٢٠ يونيو من نفس العام .

الا أن صورة المسرح السياسى الاسرائيلى لن تكتمل ما لم تشر الى وجود نظرية نشيطة لبعض الأحزاب الصغيرة بل ولبعض الجماعات الصغيرة التى تكاثرت على مر الأعوام فى طرقات السياسة المكتظة . ان اصطباغ الحياة السياسية بطابع شخصى والعداوات التى لا تنتهى بين الأحزاب ، والخلافات من أجل ترهات لغوية ربما ورثت عن روح المجادلة التى يتسم بها التلمود — كل هذا أوجد شقاقات وولد جماعات صغيرة عديدة تجمعت حول رجل أو فكرة أو طموح .. وغالبا حول ضغينة ما .

وليس ظهور فلاتو شارون بالأمر الذى يبعث على الدهشة فهذا الشاب الذى يناهز الخمسين من عمره ، ذو البنية المشوقة ، والترف الصارخ الذى جاء الى اسرائيل عام ١٩٧٣ ليستثمر أمواله فيها — أموال لم يتحقق كسبها فى كل مرة بالطريقة المشروعة سواء فى فرنسا أو فى الشركات الدولية العديدة — هذا الشاب ربما ينظر اليه رجل الشارع على انه روبنسون كروزو « يهودى آخر » . ومع ذلك فلم يضايقه ابدا أن هذا الرجل الذى خالف القوانين الحالية ، استخف بالسلطات الفرنسية التى كانت تطالب بطرده فى الوقت الذى أطلقت فيه سراح أبو داوود الارهابى الفلسطينى أحد المتهمين فى عملية الاعتداء التى وقعت أثناء

الألعاب الأولمبية . وكان فلاتو يتمتع بقدر كاف من الأصوات بحيث يمكنه أن يرشح معه على نفس قائمته الانتخابية نائبين آخرين . الا أنه فاز وحده بمقعد لأنه تقدم « بمفرده » إلى الكنيسست . وخلال هذه الفترة عكف شارون على دراسة اللغة العبرية حتى يمكنه أن يعبر من فوق منبره عن أفكار طال انتظارها . الا انه كان ينبغى أن يمتثل أمام القضاء خاصة وانه اتهم بشراء أصواته .

أما سولانيت إلونى الابن العاق لحزب العمل ، الذى يرأس حركة هذا الحزب من أجل الحقوق المدنية ، وعدو الدين اللدود فى الدولة ، فقد ناضل فى إصرار وتصميم من أجل الزواج المدنى فى بلد تخضع فيه الأحوال المدنية لأحكام الدين ، كما ناضل من أجل حقوق المرأة ومحاولاته الدائبة لمداواة عيوب البيروقراطية جعلته عنوانا غير رسمى لمكتب مطالب المواطن اليهودى .

وأخيرا لا يمكن أن نغفل قوى اليسار ، وهى بالطبع تشكل أقلية سواء من حزب شيلى أو حزب راكاج الشيوعى الموالى لموسكو وستالين . ويضم حزب شيلى أنصار الحوار مع الفلسطينيين بل ومع منظمة التحرير الفلسطينية . ويجمع هذا الحزب الشيوعى ناخبيه بصفة رئيسية من بين السكان العرب . ويعبر هؤلاء السكان بوساطته عن معارضتهم الوطنية دون أدنى اكتراث بالماركسية النظرية لزعماء الحزب . أما حزب راكاج فقد حمى النائب شارلى بيتون « الفهد الأسود » وهو مجرم سابق ومناضل من أجل قضية الشرقيين ، ورفع من فوق منبر الكنيسست أصوات المنسيين فى المجتمع الاسرائيلى دون أية تعقيدات .

ولا يمكن أن تتصور الحياة العامة فى أسرائيل بلا أى أثر لهذه الأحزاب الصغيرة التى يمثل كل واحد منها مصالح واهتمامات محددة ، والتى تعطى مذاقا لهذا المطبخ السياسى الذى لولاها لأصبح مملا للغاية .

فمع صعود كتلة ليكود البطىء والصلب فى نفس الوقت فى مواجهة حزب العمل اصبحت عملية الاستقطاب الثنائى أمر بالغ الأهمية .

على أعتاب الحكم

عندما ضم حزب حيروت قوته الى قوة الحزب الحر داخل حزب جحال فى الانتخابات التشريعية عام ١٩٦٥ ، وعلى الرغم من حصولها على ٢٦ مقعدا الا انهما لم يحصلا معا على عدد المقاعد التى حصل عليها كل منهما على حدة فى عام ١٩٦١ .

وفى عام ١٩٦٩ ظل عدد مقاعدهما فى الكنيست السابع ٢٦ مقعدا . وغداة الانتخابات عام ١٩٧٣ فقط وبعد « الهزة الأرضية » التى أحدثتها حرب الغفران قفزت كتلة ليكود (التى خلفت حزب جحال) قفزتها الأولى وحصلت على ٣٩ مقعــدا . وما لم يفلح فى تحقيقه الزواج بين الحزبين حققه النشاط المحموم الذى قام به الجنرال اريل شارون : حينما أحرز تقدما حاسما لنهضة هذه القوة التى رشحت نفسها لكى تحل محل السلطة الاشتراكية القائمة .

ان حزب حيروت (حزب مناحم بيجين الحر) الذى تولد عن جماعة الايرجون ذات النشاط السرى ، هو حزب من المنــاضلين الذين زادتهم نيران حرب الاستقلال صلابة ، وقوت شكيمتهم تجربة المعارضة فى مواجهة حزب ماباى عدوهم الأزلى . ولم يحجم أعضاؤه مدفوعين بدوافع ـ قوية ـ عن استخدام اللهجة الهجومية لهجة العنف (على سبيل المثال فى المظاهرات ضد مشروع التعويضات الالمانية) ، وازدادوا تماسكا لشعورهم بالانتماء الى « أسرة » هامشية ومغلقة . وحزب حيروت حــزب وطنى لا يعيش الحاضر بقدر ما يعيش ماضى الأســاطير والصراعات . وأن كان اعتقاده الشديد فى ملكيته ، « لضفتى نهر الأردن » قد أصبح شعارا الا انه أبعــده عن الحقائق . ولولا شخصية بيجين القوية لذاب هذا الحزب بصــــورة تدريجية ولولا أيضا مساندة جنرالات مثل شارون وعزرا وايزمان .

أما الحزب الحر فيميل الى الوسط بنزعته وبحكم الضرورة أيضا ، ويضم المستوطنين القدامى فى فلسطين الذين سبقوا الرواد الاشتراكيين ، وأصحاب الشركات الاسرائيلية الصغيرة والمتوسطة ، والطبقات المتوسطة وهو من انصار عدالة التوزيع بين القطاع العــام والقطاع الخاص ، ومن

أهدافه مكافحة المشكلات البيروقراطية التى تقف حجر عثرة فى سبيل المبادرة الفردية فى الاقتصاد ؛ كما يدعو الى نظام اقتصادى حر معقول ومخطط . وتعد السياسة الاقتصادية التى ينتهجها سيحا ابرليخ وزير المالية وزعيم الحزب الحر ، صورة لذلك . وأعضاء هذا الحزب أكثر اعتدالا بلا شك من شركائهم فى حزب حيروت فى مجال السياسة الخارجية، وأقل تشددا عنهم فيما يتعلق بالعرب والأراضى . وهم يشاركون رفاقهم فى حزب بيجين حقوقهم من قيام دولة فلسطين (دولة عرفات كما تقول كتلة ليكود) لو تنازلت اسرائيل عن أراضى اليهودية والسامرة . الا أن الجنرالين أيريل شارون وعزرا وايزمان سيعملان على توثيق عرى هذا التحالف المزعزع بين الحزبين ليجعلا منه فى النهاية أداة للتناوب .

أن اريل شارون بطل حملة أفريقيا الذى نجح فى نقل قواته على الجانب الاخر من قناة السويس ، على الرغم من مخاوف هيئة الأركان ، كان يتطلع دائما الى مستقبل وطنى وقد سنحت له الفرصة عندما انضم الى الحزب الحر ، وعندما قاد الحزبين الى الوحدة بما يشبه القوة لخوفهما الشديد من ميوله . ولخيبة أمله فى تحفظاتهما ، وعقليتهما المتجمدة بعض الشىء بسبب معارك المعارضة القديمة ، الاغلال التى تعيق عمل اجهزتها والعراقيل الاجتماعية التى تقف حجر عثرة فى سبيل المسيرة نحو الحكم ، قاطع أيريل شارون كتلة ليكود .. وعمل فى حكومة رابين لفترة من الوقت كمستشار عسكرى ، كما تقرب من أيجال يادين ، وأدار بنجاح اعمال مزرعته الشاسعة بصحراء النقب كلما سنح له الوقت . ثم قرر تأسيس حزب بزعامته حزب شلوم سيون « سلام لصهيون » وعليه حصل على مقعدين فى البرلمان ومنصب وزير الزراعة .. بل كانت له أيضا اليد العليا فى المستوطنات وهو أحد روادها الأوفياء . أن شارون هو موارت آخر فى انتظار نابليون آخر .

أما عزرا وايزمان قائد السلاح الجوى الاسرائيلى ، فقد قاد طياريه الى الانتصار المفاجىء عام ١٩٦٧ . وهو مزهو بنفسه ، وعلى قدر كبير من البلاغة ، لا يكترث بالايديولوجيات والعمل هو دينه الوحيد . وقد تأثر هو الآخر بسحر كتلة ليكود ، فقادته رحلته الى الانضمام اليه ثم الانسحاب منه ، فى انتظار الفرصة المنشودة التى اتيحت له عشية الانتخابات عام١٩٧٧ ، أن أسلوبه القتالى الذى يحتفظ به حتى فى الحياة المدنية جعله يغير من

عادات كتلة ليكود وعادات بيجين . فتولى تنظيم الحملة الانتخابية لهـذه الكتلة بمعاونة مجموعة لامعة من رجال الدعاية ، وحرم على مناحم بيجين التدخل فيها اللهم الا بالظهور أمام الناخبين وبالقاء الخطب المسموح له بها. واطاعة زعيم كتلة ليكود الذى أعيته الازمات القلبية ، اذ رأى فيه الخليفة الذى طالما كان يحلم بأن يخلفه فى زعامة الحزب على مدار ثلاثين عاما من الكفاح فما هو هدف عزرا وايزمان اذن ؟ هو تجنيب بيجين الوقوع فى الشراك التى ينصبها له حزب العمل عند اقتراب الانتخابات لحملة على رفع القناع البرلمانى الانيق الذى يحترم العادات ويحترم الروح الجماعية الطيبة ، فيكشف من ثم عن وجهه الحقيقى المتمرد ، ذلك الوجه الذى لم ينس شيئا من الماضى ، ولم يتعلم أى جـديد . وقام عزرا وايزمان بشن حرب دعائية حقيقية على يوسى ساريد ذلك الصحفى الشـاعر والنائب ذو العقل المفكر اللامع فى حزب العمل ؛ فأثار نزالهما ــ الهادىء فى بعض الأحيان ، والحاد أحيانا أخرى ــ غبطة الصحف الاسرائيلية والجمهور . ويبدو انه تواطأ خفيا كان يجمعهما فى هذه الحرب ــ حـرب البيانات ، والمعارك المكتوبة ، والدعائيـة ــ تلك الثورة العارمة ــ ثورة الشـباب من الرجال على أنظمتهم الحزبية الكهلة بعض الشىء . وهكذا دخلت اسرائيل معهما ــ سـواء متجهة الى الأسـوأ أو الى الأحسن فى زمـرة الانظمة الديمقراطية التى ينتهجها الغرب .

وفى مسـاء يوم الانتخابات قال عزرا وايزمان هـذه الكلمة عندما رآه المشاهدون يعلق فى ابتهاج قائمته الانتخابية : « لا داعى للخوف أن الموقف فى البلاد سيكون أفضل من أى وقت مضى . وان أملى لكبير فى أن يتحقق السلام الذى طالما كان منشودا » .

وقبل أن يعين عزرا وايزمان وزيرا للدفاع ببضعة أيام حرص على أن يذكر كلمة « السلام » أمام المـلايين من المواطنين الذين اذهلهم التغيير الشديد الذى طرأ على مجتمعهم . ولم يكن عزرا يجهل انه بناء على هذا السلام الذى ظل لفترة طويلة حلما بعيد المنال ــ بناء على هذا السـلام بصفة خاصة ــ سيكون الحكم على هذه المجموعة التى قادها الى النصر .

انه يعرف الآن أن دخول المجموعة ــ التى تمسك حاليا بزمام الحكم ــ أن دخولها لتاريخ مرتهن بالسلام الى حد كبير . فتراها ستكون حادثا عابرا فرضته اهواء القدر ، أم سـتنجح فى التغلب على الصـعاب وفى تغيير مسارها ؟ ليس غريبا فى تاريخ اسرائيل الزاخر بالمآسى أن يأتى السـلام من حيث لا يتوقع .

الثورة بالانتخابات

اسرائيل هى دولة على اهبة الحـــرب
ومجتمـــع مثقف فى نفس الوقت ، انهـــا
اسبرطة واثينا فى آن واحـــد .

سول بيلو

« فى عودة القدس »

طفولة زعيم

ان مناحم بيجين صغير وضئيل الحجم ، يضع نظارة مستديرة وسميكة على عينيه وجهه غائر الوجنتين وهو يبدو كرجل من رجال التلمود أكثر مما يعطى انطباعا بأنه رجل اعلنت السلطات البريطانيــة عن مكافأة لمن يأتى براسه (وقدرها عشرة آلاف جنيه بريطانى) ويصف أرثور كوستلر دهشته حينما وجد نفسه غداة حرب الاستقلال أمام زعيم « الارجون » فقد سبق أن التقى به فى المرة الاولى فى السر . ودار الحديث بينهما فى سرية تامة . ويروى بيجين فى ابتهاج كيف حاول الصحفى الكاتب الانجليزى أن يشعل سيجارتين ليرى وجهه وكتب كوستلر يقول «من نبرة صوته التى كانت تصلنى فى الظلام من الجانب الاخر من المنضدة ، تصورته ضخما ، وناسكا متعصبا . والحقيقة أنه كان صغيرا ، ضئيلا ، رهيفا ، ضـعيف النظـر ووجهه هادىء وجاد مثل وجه المعلم . الا أن الأصــوات تبدو خداعة فى الظلام مثل السجائر والطعام . وهو أرعن ، ولكنه واثق من نفسه مثل الأشخاص الذين انتهى بهم الامر الى التكيف مع خجلهم . وهو يتحدث بقليل من التعصب وبقدر كبير من الروية والتأنى الى حد اننا نجــد فى دعايته قدرا من البلاغة والعنف . وهو يشبه الرجل المثقف فى ملبسه الذى يفتقر الى الهندام ، ملبس لا يتناسب معه . كما يشبهه فى تأثيره السحرى المحدود . ولقد تفاهمنا عندئذ اكثر مما تفاهمنا عندما قام بتمثيل دور الرجل الخفى » .

ثم كتب كوستلر فيما بعد هذه العبارة عن مناحم بيجين ، وهى صورة واضحة لجيل من الرواد فى اسرائيل : « انهم قوم لم تكن لهم طفولة لأن الظروف فرضت عليهم فى وقت مبكر مسئوليات تتجاوز اعمارهم . انهم اطفال معجزة لم يلعبوا ابدا لعبة البلى » .

ومع ذلك فقد كان لبيجين طفولة مدللة . تلك الطفولة المغمورة بالرعاية التى تنعم بها الأسر اليهودية التقليدية . وقد ولد بيجين فى مدينة بريست ليتوفسك ببولندا عام ١٩١٣ فى شهر الأحزان عند اليهود لأنه يخلد ذكرى تدمير معبد القدس . ومن هنا كان اسم مناحم ومعناه السـلوى . وهو ثالث طفل لأسرة متواضــعة للغاية . وقد كانت قلة امكانياتها سـببا فى

الا يواصل الشاب مناحم بيجين دراساته الثانوية فى أحدى المدارس الثانوية كما كانت تتمنى أسرته ، وانما فى أحدى المدارس العامة .

وفيها درس الآداب القـــديمة ، وتعلم اللغة اللاتينية التى يميل الى استخدامها من آن لآخر ودرس بصفة خاصة فى فترات الراحة بين الحصص الدراسية معاداة السامية المتأصلة فى الشعب البولندى . وقد روى فيما بعد انه تحمل على مضض فى يوم من الأيام مزاح وسخرية رفاقه فى الفصل الذين راحوا يتهكمون عليه لرفضه مخالفة قدسية يوم السبت باجتياز امتحان اللغة اللاتينية الذى تحدد فى ذلك اليوم المقدس .

ونلاحظ فيما بعد فى أعوام المقاومة نفس هذا الالتزام الشديد بالتقاليد ورغم علمنا بأن نضالنا كان مباحا حتى فى يوم السبت نظرا لضرورته ، الا اننا كنا نفضل فى هذا اليوم الا نستخدم اسلحتنا الأمر الذى يعلمه الانجليز وكانوا يحترمون يوم السبت اليهودى أكثر من احترامهم ليوم الأحد .

ولم تكن المدرسة الثانوية ببولندا وحدها الفرصة التى تعرف فيهـا بيجين على معاداة الشعب للسامية . فقد كانت بولندا دولة مفتتة تقاسمتها طويلا كل من بروسيا ، وروسيا والنمسا. وسرعان ما وطأت أرضها الجيوش الألمانية ثم السوفيتية ، ومن ثم نمت فيها بذور الروح الوطنيـــة كما نمت بها فى نفس الوقت كراهية الأجنبى ، وبالتالى كراهية اليهود .. ولم يكن من السهل على مناحم الشاب أن يندمج فى « الذات » الوطنيـــة التى كان أول ضحاياها . الا اننا يمكن ان نتصور أن هذا المزيج الثقافى الذى كان غارقا فيها لم يلبث أن أيقظ فيه التطلع الى شخصية وطنية مستقلة تلك الشخصية التى سرعان ما وجدها بين صفوف « البيتار » وهى منظمة الشباب فى الحركة الصهيونية التعديلية .

وحينما توجه بيجين الى مدينة وارسو فى سن الثامن عشرة من عمره لدراسة القانون كان « بيتاريا » لامعا من أتباع فلاديمير زيف جابوتنفسكى . ولما كان يتمتع فعلا بموهبة خطابية ، فقد أخذ يتجول بين الطوائف اليهودية لينقل لها كلمة السيد . وخلال أحد مؤتمراته التى كان يجوب فيها بين هذه الطوائف تعرف على فتاة شابة هادئة رزينة . « وفى الحال قرر أن تكون زوجته » وتم الزواج بعد ذلك ببضعة أشهر فى وجود جابوتيفسكى الذى اهتم بتكريم الرجل الذى أصبح خلال هذه الفترة ممثلا لمنظمة البيتار فى بولندا . ولم تفارقه اليزا بعد ذلك .

ولنعد ادراجنا الى طفولة بيجين . فأبوه زيف دوف بيجين هو سكرتير الطائفة اليهودية بمدينة بريست ليتوفسك . ووجهه وجه يهودى متعالى ترك اثره على رئيس الوزراء المقبل . وثم رواية تصف شخصيته باختصار انه فى يوم من الايام فاجأ زيف جنديين بولنديين يضايقان احد الحاخامات فرفع عصاه وانهال بها ضربا على ممثلى القانون . فقبض عليه ، وضرب ، ثم عاد الى منزله غارقا فى دمائه الا انه كان سعيدا . وعندما دخل الألمان مدينة بريست ليتوفسك لأول مرة قبل تسليمها للسوفيت فى اطار معاهدة ريبنتروف مولوتوف توجه زيف دوف بيجين الى « القيـــادة الألمانيـــة » يطلب قائمة بأسماء اليهود الذين تم القبض عليهم والتصريح له بزيارتهم . وتسهيلا لمسعاه قدم وثيقـــة تشهد بأنه عمل كمترجم للجيش الألمـانى أبان الحرب العالمية الأولى .

الا أن الألمان عادوا مرة ثانية الى مدينة بريست ليتوفســك وكانت عودتهم عودة مشئومة . اذ كان أبو مناحم وامه واخوه من أول ضحايا الألمان وروى بيجين هذا الحادث بعد ذلك ببضعة أعوام قائلا : لقد سار أبى — كما علمت فيما بعد — الى الموت بين أيدى النازى وهو يردد شعائر الدين اليهودى ، والنشيد الوطنى العبرى .

وكان مناحم بيجين نفسه فى ذلك الوقت فى مدينة لتوانيا حيث فر فى عام ١٩٤٠ عند دخول قوات النازى مدينة بريست ليتوفسك . وتم القبض عليه فى فيلنو لنشاطه الصهيونى : « ان اللجنة الخاصة الاستشارية للشئون الداخلية التابعـــة لمجلس الشـــعب تعتبر مناحم بيجين عنصرا خطــيرا على المجتمع لذا قررت سجنه فى معسكر للأعمال الشاقة لمدة ثمانية أعوام .

واطلق سراحه بعد ذلك بفترة وجيزة من سجن لوشيسكى فقرر بيجين التطوع فى الجيش البولندى تحت قيادة الجنرال انديرز الذى اتجه من الاتحاد السوفيتى الى أرض فلسطين عن طريق أيران والعـــراق ، وقد استخدم بعض اليهود البولنديين وسيلة الانتقال هذه للذهاب الى ارض الميعاد ولكن سرعان ما كانوا يتركون الجيش بمجرد وصـــولهم الى المكان المقصـــود .

أما بيجين نفسه فلم يترك الجيـــش (لأن ترك الجيش أمـــر مخالف للشرف فى مفهومه) وانما عمل فيه لمدة عام ونصف الى أن اطلق سراحه فى أواخر عام ١٩٤٣ . وبعدها مباشرة عين قائدا لقوات « الايرجون » . حينئذ بدأت أمجد فترات حياته ، الفترة التى مارس فيها نشاطه فى السر .

ومنظمة « ايرجون تزفلى ليومى » (وهى منظمة عسكرية وطنية) تأسست عام ١٩٣٧ (وتميزت عن الهاجانا بأساليب عملها التى حكمت عليها بممارسة نشاطها سرا) وباتجاهاتها السياسية . فبينما كانت الهاجانا نوعا من ميليشيا الطبقة العاملة ، استقطبت منظمة الايرجون أولئك الذين تصدوا للصهيونية العمالية .

واخفت منظمة الايرجون مطابعها ومخابئها فى تل ابيب حيث عاش مناحم بيجين نفسه « فى سرية تامة متخفيا تحت اسم مستعار واحية » . وكتب بيجين يقول أن السلطات العسكرية الانجليزية وجهاز المخابرات اعتقدوا أن لدينا آلاف الجنود المحترفين الذين لم يكن لهم من عمل سوى « الارهاب » المناهض لبريطانيا . ولم نحاول أن نبدد شكوكهم هذه ! فالى أن جلت القوات الانجليزية عن فلسطين لم يكن لدى المنظمة سوى بضعة عشرات من الأعضاء يعملون بصفة دائمة فى النضال السرى (وكان عددهم أحيانا يقل عن عشرين ولكنه لم يزد أبدا عن اربعين أما الأعضاء الآخرون - وعددهم بالمئات وأصبح فيما بعد بالآلاف - فقد استمروا يؤدون أعمالهم العادية ، الى جانب بقائهم تحت تصرف المنظمة كلما دعتهم للعمل بها . انهم جيش شعبى حقيقى .

وفى يوم ٩ ابريل ١٩٤٨ ، وبعد سلسلة من الأعمال الرائعة فى جميع ارجاء البلاد ، قام مقاتلو منظمة الايرجون - بمساعدة أعضاء جماعة شترن - بحادثة فظيعة ودامية . فذبحوا ما يزيد على ٢٥٠ رجلا وامرأة وطفلا فى قرية دير ياسين على مسافة غير بعيدة من القدس .

فما هى ظروف هذه الحادثة ؟ وكيف وقع هذا العمل المروع ؟ لم تنته حتى الآن وبعد ثلاثين عاما المجادلات الدائرة حول هذه الواقعة المؤلمة فى مسيرة الصهيونية الطويلة نحو السيادة . ولا تزال الدعاية العربية تشير الى حادثة دير ياسين لذكر « فظائع اليهود » وكالعادة كان رد اليهود بأنه من الخطأ التحدث عن هذه الواقعة على أنها مذبحة مقصودة ضد المدنيين . وهى فى رأيهم أولا عملية حربية ، تم اخطار السكان بها مسبقا حيث دعوا للاحتماء بالمرتفعات .

وكانت النتيجة المباشرة لمسألة دير ياسين اساسا هى اثارة رعب حقيقى بين العرب الفلسطينيين فى فلسطين الذين اخذوا طريق الهجرة بأعداد كبيرة حيث بدأوا يقتنعون بأن أعمالا من هذا النمط سوف تأخذ فى التزايد .

وعندما أصبح مناحم بيجين رئيسا لوزراء اسرائيل طلب أحد الصحفيين الأمريكيين من الياهو اليسار صديقه الحميم — ورئيس مكتبه الحالى أن يعطيه صورة سياسية عن رئيس الحكومة الجديدة . فكان الياهو اليسار : « اقرأ كتابات زيف جابوتنسكى وسوف تجد كل شيء فيها » .

ولا يمكن للمرء أن يفهم شيئا عن شخصية بيجين وأفكاره ، وقراراته وفلسفته السياسية ما لم يرجع الى فلاديميرزيف جابوتنسكى ملهمه وأبى الصهيونية التعديلية .

فمن هو جابوتنسكى ؟ قلما أثار حاكم صهيونى مشاعر فياضة كتلك التى أثارها جابوتنسكى بواقع الاخلاص المطلق وشبه الثقافى من جهة ، وكراهية عمياء من جهة أخرى . فبعد أن استنكرية « المؤسسة الصهيونية » ، مات جابوتنسكى فى نيويورك عام ١٩٤٠ ، واعرب فى وصيته عن رغبته فى نقل رفاته الى فلسطين بعد قيام الدولة اليهودية . ولم تتحقق هذه الامنية الا مع مجيء ليفى أشكول بعد قيام دولة اسرائيل بما يزيد على خمسة عشر عام .

ففى ١٩٥٦ ، سأل جوزيف سيشتمان — الذى كتب سيرة حياة جابوتنسكى — بن جوريون عن سبب عدم نقل رفاة زعيم الصهيونية التعديلية الى فلسطين . فأجاب بن جوريون قائلا : « أن رفاة هرتزل والبارون اوموند روتشيلد هى وحدها التى ينبغى اعادة دفنها فى اسرائيل . وعدا ذلك فاسرائيل ليست فى حاجة الى موتى وانما فى حاجة الى يهود أحياء .

ولد جابوتنسكى فى مدينة أوديسا وهو ينتمى مثل هرتزل وعلى خلاف بيجين الى اسرة يهودية بورجوازية اندمجت فى المجتمع . وقد عرف فى مدينته فى سن الخامسة والعشرين بأنه كاتب مقالات لامع ، وملم بالأدب الروسى وشاعر موهوب . وحصل جابوتنسكى على دراسته فى ايطاليا الحرة فى أواخر القرن الماضى حيث احتك بكبار مفكرى النهضة .

وتنبه جابوتنسكى الى المسألة اليهودية . كان مفاجئا وعنيفا أيضا . فقد كان لمذابح عامى ١٩٠٤ ، ١٩٠٥ التى أقيمت فى روسيا ضد اليهود أثر بالغ فى نفسه . وقد اكتشف مثل هرتزل الذى تعرف عليه فى المؤتمر الصهيونى السادس ، وتأثر تأثرا شديدا — انه يهودى من خلال الشعارات المقيتة التى رفعتها المظاهرات المعادية للسامية .

وفى عام ١٩١٧ وفى أوج الحرب العالمية اسس جابوتنسكى « الفيلق اليهودى » الذى شارك فى المعارك العسكرية بفلسطين مشاركة رمزية للغاية ومع ذلك أحدث دويا هائلا فى الدوائر الصهيونية . وقد كتب بيجين فيما بعد يقول : « أن أصول منظمة الايرجون ترجع الى الفيلق اليهودى الذى كونه جابوتنسكى وترومبلد ورابان ابان الحرب العالمية الأولى فالبيتار هى الفداء الذى نفذت منه منظمة الايرجون .

وفى شهر يناير عام ١٩١٣ قدم جابوتنسكى استقالته للسلطة التنفيذية الصهيونية لاعتراضه على سياسة قادتها فى تلك الفترة ولا سيما سياسة حاييم وايزمان « سياسة الاستسلام الاعمى » . فالمبادىء التى يدافع عنها والتى أصبحت فيما بعد مبادىء الصهيونية التعديلية مبادىء متشددة اذ تطالب بأن تقام دولة يهودية بأغلبية فى كل الأراضى الفلسطينية بقوة القتال . والا تقام بغير هذه الوسيلة (واصبح هذا الشعار الذى تركه جابوتنسكى شعار منظمة الايرجون فيما بعد) .

وقد أوجز جابوتنسكى برنامج الصهيونية التعديلية كما يلى : « ان برنامجها ليس معقدا . فهدف الصهيونية هو اقامة دولة يهودية . أراضيها : ضفتا نهر الأردن . ونظامها اقامة عدد كبير من المستوطنات . وحل المشكلة المالية : عقد قرض وطنى . وهذه المبادىء الأربعة لا يمكن تطبيقها دون موافقة دولية . ومن هنا كان شعار الساعة : القيام بحملة سياسية جديدة وصبغ الشباب اليهودى فى أرض اسرائيل وفى الشتات بصبغة عسكرية .

وسرعان ما انفصلت الصهيونية التعديلية عن المؤتمر الصهيونى ليؤسس فرعا مستقلا خاصا بها . والخلافات بينهما هنا ليست خلافات نظرية فحسب ، وانما هى أيضا خلافات فلسفية ، واخلاقية ونفسية : وينقل لنا والتر لاكور فى كتابه المذهل عن « تاريخ الصهيونية » هذه الأقوال التى ادلى بها جابوتنسكى فى جلسة سرية : « أن الصهيونية التعديلية ليست حزبا سياسيا أو ايديولوجية من الايديولوجيات بقدر ما هى « جنس نفس » . وعقلية فطرية محدودة لا يمكن نقلها وتوجد لديهم بالفطرة . ومن ثم فان مهمة الحركة هى البحث عن قوم من « جنسها » وتنظيمهم ، وليس العمل على تبديد نشاطها فى كسب جهود من الصهاينة ، جمهور مختلف فى عقليته .

وامتدت هـذه الحـركة التى نادى بهـا فلاديمير زيف جابوتنسكى ـ ولاسيما منظمة شباب « البيتار » ـ الى أوروبا وبصفة خاصة فى بولندا والى فلسطين حيث أصبح لها أتباع كثيرون .

فما مدى مسئولية قائد الصهيونية عن تطور الأفكار التى قام بنشرها هل يمكن اعتباره مسئولا عن بعض الانحرافات اليمينية التى لم يعصم منها أعضاء هذه الحركة ؟ ان السؤال لايزال بلا جواب . ولكن مما لا شك فيه ان ايديولوجية حركة « البيتار » ايديولوجية عسكرية للغاية : ارتداء زى موحد ، وتعاليم شبه عسكرية ، واقامة استعراضات رسـمية ، والتزام شديد بالنظام ويقول نشيد المنظمة الذى حرره جابوتنسكى :

« بالـدم والعـرق

سينهض جيل جديد .

فخور ، كريم ، قوى » .

ويغرس فى هذا الجيل تقديس « الهادار » ومعنى هذا اللفظ جمال الجسد ، والاحترام والكرامة ، والاستقامة ، والنزاهة ، وحسن الادراك ، والهدوء ، والشرف ، والمهابة .. كما يتعلم هـذا الجيل أهمية فضـائل الرجولة العدوانية وهى الصفات التى افتقر اليها الشعب اليهودى (رواية بعنوان « شمشون » لجابوتنسكى) .

ترى هل يعد جابوتنسكى رجلا فاشيا ؟ لقد كتب يقول : « انى على العكس من ذلك تماما . فأنا أكره بغريزتى جميع أشكال الدول البوليسية . لاننى أشك تماما فى قيمة النظام والقوة والعقاب الى آخر قولك وحتى الاقتصاد المخطط » .

ومع ذلك يبدو أن حركة « البيتار » قد تأثرت ـ بصفة جزئية على أية حـال ـ بالحـركات الاسـتبداوية فى العشرينات والثلاثينات فالخطب والشـعارات والايديولوجية والقيـم التربوية هى الخطب والشـعارات والايديولوجية والقيم التربوية التى ينادى بها « نظام الفروسية اليهودية المتمركزة على حصون النهضة الوطنية لحمايتها » .

وقد كتب والتر لاكور يقول أيضا : « ان الحركة التعديلية قد أدركت قبل غيرها من الحركات الصهيونية الاخرى بعض النقاط الأساسية وبصورة أوضح ، ربما لانها لم تكن على نفس المستوى من الاكتمال ، وهذه النقاط هى : انه لا يمكن أن تقوم أية دولة يهودية بدون توافر أغلبية يهودية ، وانه

لا يوجد أى حل سياسى آخر الا بقيام دولة يهودية وذلك بسبب معارضة العرب للهجرة والاستيطان اليهودى .

وهذا هو « أساس » ايديولوجية مناحم بيجين ، والارضية التى شب عليها والقرارات التى قراها والمستندات التى كان يرجع اليها . والغذاء الذى أمد به خطبه . ان أول ما يهر هذا التلميذ الشاب الذى يميل بطبيعته الى الأسلوب العاطفى الوجدانى هو ما سمى « بالتوحيد » فحركة البيتار « تدعو فى الواقع الى « الصهيونية النقية » التى تخلصت من المصطلحات ذات النزعة الاشتراكية ، مصطلحات هاشوير هاتزايير » (حركة الشباب الصهيونى الماركسى التى اختلط بها لفترة من الزمن) ، كما تدعو الى الوطنية الخالصة التى لا تتمثل فى مجتمع من الصراعات أو فى اقتصاد طبقى . انما دولة تتمثل فى الدولة .

والذى بهر هذا التلميذ الشاب ايضا هو وجه هذا « السيد » المهيب وحماسه وحيوتيته .

أما عن العلاقات بين جابوتنسكى وبيجين فلا نعرف عنها الا القليل ترى هل كان جابوتنسكى يعتبره خليفته كما يعتقد البعض ؟ هذا أمر محتمل ومع ذلك وقع بين الرجلين « اشتباك » لا ينسى أثناء المؤتمر العالمى الثالث الذى عقده « البيتار » فى وارسو عام ١٩٣٨ . حيث اقترح السيد الكبير الموافقة على قرار بما يلى : « انى أقدم ساعدى للدفاع عن وطنى ولااقدمها الا للدفاع عنه » . وحينئذ اعتلى بيجين المنصة وتحدث عن طبيعة « الراى العام الدولى » التى لا قيمة لها ، وعدم اكتراث العالم الا بلغة واحدة وهى لغة القوة وختم بيجين كلمته باقتراح قرار معدل : « انى أقدم ساعدى للدفاع عن وطنى وللاستيطان فى بلادى » .

واخيرا تمت الموافقة على قرار بيجين . فجرح جابوتنسكى فى الصميم ، واخذ الكلمة ليقول « اذا كنت يا بيجين لا تؤمن بالضمير العالمى ، فليس عليك الا أن تلقى بنفسك فى مياه البحر » . ورغم ذلك فهناك اختلاف بين الرجلين . صحيح أن كليهما حر ، ووطنى ويدعو الى صهيونيــــة متطرفة وكليهما رومانسى ، وعاطفى ويتمتع بموهبة خطابية كبيرة . الا أن أحدهما ابن موظف بسيط شب فى أسرة يهودية فقيرة ؛ وفى دولة بولندية شــديدة العداء للسامية أما الآخر فرجل بورجوازى مقاتل ، تهود متأخرا .

ويرسم حاييم وايزمان لنا صورة لجابوتنسكى يتعذر التعرف فيهــا على خليفته : « جابوتنسكى رجل صهيونى متحمس ، ولم يكن يهوديا

على الاطلاق فى مسلكه او فى اسلوب حياته أو فى علاقاته مع الناس . فقد ولد فى مدينة اوديسا ، الا ان الحيــاة داخل المجتمع اليهودى لم تترك اى اثر عليه وعندما توثقت العلاقة بينى وبينــه يعد ذلك لبضعة أعوام ، كنت الاحظ ــ كلما راقبته عن قرب ــ ما يؤكد لى فيما يبدو هــذا الازدواج . فقد كان يميل الى القبح ، ولكنه كان جذابا فى نفس الوقت ، فكان يتحدث بصورة تثير الاعجاب ، كما كان كريما ، وحرا على استعداد دائما لمعــاونة الصديق عند الضائقة . الا أن كل هذه المزايا كان يحجمها طابع مسرحى يميل الى الادوار البطولية الى حد كبير .

وهو أشبه فى تطرفه بفارس يعجز الكلام عن وصفه . ولم يكن يهوديا على الاطلاق . ونجد نفس الرأى لدى بن جوريون الذى قال : « كانت لدى جابوتنسكى حرية فكرية مطلقة . ولم يكن هناك أى شبه بينه وبين يهود الشتات ، كما لم يكن يشعر بأى ضيق عند وجود اى شخص غير يهودى ».

أن جابوتنسكى يهودى متحرر ، ابن أوروبا القوميات أما بيجين فهو يهودى تقليدى . انه رجل شاهد الخيانة الأوروبية التى لن ينساها .

فترة عصيبة

لم يكن بيجين وهو فى سن الثالثة والستين بالطبع حديث العهد فى ساحة السياسة الاسرائيلية . وتوجد صورته بقاعة اللوحات « فى متحف جريفين بين صور الرواد العظام الذين ساهموا فى ميلاد الدولة اليهودية . وقد سمح اسحاق رابين لنفسه فى فترة من الفترات التى كان من المستبعد فيها توقع طفرات الناخبين أن يصف زعيم المعارضة السابق بأنه « أثر من الاثريات » .

فى الحقيقة من ذا الذى كان يتوقع هذه « العودة » المتألقة ؟ ومن ذا الذى كان يتصور فى لحظة من اللحظات أن يعود هذا الرجل المخضرم المتمرس فى السياسة الى الظهور فى يوم من الأيام ؟ وانه « سيكتشف » ؟ فقد أعتقد انه مستهلك ، لانه اشتغل كثيرا ، وشوهد كثيرا .

فمنذ ١٥ مايو عام ١٩٤٨ تاريخ ميلاد الدولة اليهودية وحتى ١٧ مايو ١٩٧٧ شهدت اسرائيل ثمانية انتخابات تشريعية . وفى جميع هذه الانتخابات كنا نجد نفس الرجل مناحم بيجين على راس المعارضة . وفى خلال التسعة وعشرين عاما هذه تعاقبت ثلاثة أجيال على راس حزب « ماباى » التاريخى وحزب العمل . بينما ظل مناحم بيجين فى المعارضة ولم يتغير . فهو الذى كان يقود جماعته دائما الى الفشل ، ورغم ذلك لم يتأثر .

وهناك رواية يهودية قديمة عادت الى الظهور أبان انتخابات مايو عام ١٩٧٧ تقول : كان رجل يسير فى الشارع وهو يصيح : « بيجين فى الحكم ، بيجين فى الحكم . فالتقى به أحد المارة وسأله :

— ما الذى يجعلك تصيح هكذا ؟

— أنا أؤدى واجبى وأصيح ثمانى ساعات يوميا منذ تسعة وعشرين عاما « بيجين فى الحكم » .

— وكم تتقاضى نظير ذلك ؟

ـ الف ليرة شهريا .

ـ الف ليرة فقط ؟ فكيف تعمل بهذا الاجر الزهيد ؟

ـ نعم هو أجر زهيد . ولكنه عمل مضمون لمدى الحياة .

الا أن الظروف لم تلبث أن اطاحت بحزب الأغلبية . ففى عام ١٩٥٩ ، وغداة مسألة لاثون (وزير الدفاع فى حكومة بن جوريون الذى « تستر » على تصرفات أجهزة المخابرات الاسرائيلية الخطيرة التى دبرت انفجارا بالسفارة الامريكية فى القاهرة لدفع واشنطن الى مقاطعة ناصر) .

بينما كان يجرى تشكيل حزب « ماباى » ، توقع البعض فى هذه المرة انتصار بيجين الأمر الذى لم يحدث . فثمة « خطأ ما » استغله خصومه على نطاق واسع ربما كلفه بضعة الآف من الأصوات . ففى أثناء عملية الانتخابية رأى المسئول عن تنظيم هذه الحملة لتسهيل انتقالات بيجين ـ أن تتقدم على رأس سيارات الحزب دراجات بخارية لتشق الطريق امامها ـ وبالتدريج انضمت بضعة دراجات للموكب فأخذ تحرك بيجين صورة استعراض أميل الى الفاشية ، وكانت صورة أفزعت الجمهور .

غداة حرب الغفران أتهمت حكومة جولدا مائير بالاهمال وقلة البصيرة وتعرضت لحملة من الانتقادات اكتنفها احيانا سيل من السباب . فأخذ المتظاهرون يصيحون : « لابد من التغيير » . وهتف باستقالتها موتى اشكينازى وهو قائد شاب لاحدى وحدات الجيش بسيناء كان قد شهد زحف القوات المصرية على قناة السويس ، وأمضى الأيام الأربعة الاولى من الحرب فى مخبأ تحت الأرض مع رجاله ، وقد غل غليل فى قلبه .

وعندئذ كان الحكم فى متناول يد بيجين . ولكنه لم يدن حتى منه والحقيقة أن هذا الرجل كان رجلا « خاسرا » على الدوام ومستديما فى المعارضة وعلى اية حال فهذه هى الصورة التى تركها لدى جزء من الرأى العام الاسرائيلى .

والأغرب من ذلك ، أن النكسات المتتالية التى توالت على حزب حيروت ثم حزب ليكود منذ عام ١٩٤٨ لم تؤثر بأى حال من الأحوال على مركز بيجين داخل الحزب . فهو زعيم بلا نزاع ولا منازع . ولا يوجد من ينازعه مكان الصدارة . كما لا يوجد تيار يشك فعلا فى الخط الذى وضعه بيجين بنفسه وحده على راس الحزب . أن بيجين هو حيروت ، كما أن الديجولية هى ديجول .

وبالطبع فقد حدثت بعض الاصطدامات ، ولكنها لم تكن شـديدة ولم تستمر بحيث تضعف من سيطرة الزعيم الكبير . والرجال الذين تصـدوا اله لم يحاربوه داخل الحزب . وانما شدوا رحالهم وخرجوا من الحزب مثل صموئيل تامير وكان محاميا ناجحا ، وصديقا حميما لبيجين لفترة طويلة من الزمن . كما نظر اليه على اعتبار انه خليفته قبل أن يترك الحـزب فى عام ١٩٥٦ ويذهب لتأسيس حزب « الوسط الحر » الذى لم يطل أمده وبعدها وجد تامير فى مكان الصدارة فى حزب « واشن » ثم عين وزيرا للعدل عندما قررت حركة البروفسور يادين فى أواخر شهر اكتوبر عـام ١٩٧٧ الانضمام الى الائتلاف الحاكم .

وهناك من شدوا رحالهم أيضا مثل اكيفاتوف وهو نائب فى حـزب حيروت ساءه ما أسماه بالعادات الديكتاتورية للسيد فوصـفه قائلا بأنه « جامد ومغرور الى حد جعل عددا كبيرا من أعضاء كتلة ليكود يخشون مواجهته » . وانضم توف أيضا الى حزب داشن الذى يلتقط الجميع .

ويروى أرييه دولزين مرشح كتلة ليكود لرئاسـة المنظمة الصهيونية العالمية (وينتمى الى الجناح الحـر) أنه جاء فى يوم من الأيام ليلتقى بيجين ليبحث معه مسألة مثار جدل فى صـحبة ايليمليخ ريمالت فكتب يقول لزميله : « لتوقف هذا الاجتماع على الفور ــ لاننى أشعر أنه بدأ يقنعنى » .

واذا كان مناحم بيجين قد احتفظ بسيطرته على الحزب رغم الهـزائم التى سجلها فى الحملات الانتخابية العديدة ، فلان هذا الفشل لا يرجع الى شخصه بقدر ما يرجع الى الظروف السياسية .

وكان يتعين أن ينتظر قرابة ثلاثين عاما حتى تحصل كتلة ليكود على « صبغة الشرعية التى رفض منحها اياها . ويقال أن شـعار بن جوريون طوال مدة حكمه كان « لا حزب حيروت ولا حزب ماكى » وهو شعار لم يحد عنه ذلك أن الحاكم العمالى العجوز كان ينشـد قيـام ائتلاف وطنى من « جميع الأحزاب » ولكنه كان يستبعد منه أولا ودائما اليمين والشيوعيين الذين حرمهم من الحكم . واصدر عليهم حكما بالحرمان السياسى . فكانت احزابا محرمة .

الا أنه من المستحيل أن تفهم شيئا من التطور السياسى الذى حدث فى كتلة ليكود ولن تفهم بالتالى شيئا من قيمة ثورة السابع من شهر مايو ما لم

نتذكر العلاقات التى قامت بين بن جوريون وبيجين . فقد كان الأسـد العجوز يكن كراهية شديدة لزعيم حزب حيروت .

ولن نذكر بالتفصيل تاريخ العـلاقات بين الهاجانا (جيش الدفاع اليهودى) والايرجون (حركة المقاومة المتطرفة) . فنحن نعرف اليوم واذا عدنا بذاكرتنا الى الوراء ، ان المقاومة اليهودية ما كان يمكنها بلا شك أن تطرد الانجليز خـارج فلسطين وتؤسس الدولة اليهودية ما لم يكن هناك عمل مشترك بين الهاجانا والايرجون ، يتمثل فى دفاع سـلبى من جانب ، ورد فعال من الجانب الاخر . الدرع والسيف . « الهافلاجا » (أى الاعتدال) كما نادى زعماء « اليشـوف » الكبار ، والحـرب بلا رحمة كما دعت « الايرجـون » .

الا أنه لا يمكننا ان نغفل الصراع الذى كان يمزق هاتين الحركتين فى تلك الفترة (اذا استبعدنا فترة الوحدة القصيرة بينهما)وقد سعى بن جوريون الى الجمع بين العمل الدبلوماسى ومحاربة المحتل . فلم يكن يتحمل وجود جماعة من المتطرفين خارجين عن طوعه .

وفى عام ١٩٤٤ عرض بن جوريون برنامجا من اربع نقاط على مؤتمر الهستدروت . ولاقت النقطة الأخيرة فيـه اعتراضات ، الا أنه تم الموافقة عليها فى النهـاية ، « ومفادها اننا سوف نتعاون مع السلطات البريطانيـة حيثما اتجهت فى سبيل القضاء على الارهاب . وانه لمن الجنون والانتحـار رفض قبول مساعدتها فى جميع المجالات حيث تكون لنا معها مصالح مشتركة بحجة عدالة شكوانا من نظام الحكم الراهن فى البلاد فى بعض المجالات » .

وبوضوح دعا زعيم حزب « الماباى » الى الكشـف عن « ارهـابى » الايرجون وتسليمهم للانجليز . الأمر الذى اتبع فى حالات عديدة غداة عمليات اغتيالات دامية للغاية . وقد بقيت هذه الفترة السوداء من فترات المقاومة اليهودية مخلدة فى التاريخ باسم « الموسم » (موسم المطاردة) . وفيها تم تسليم بعض اعضاء الارجـون الى اجهـزة الأمن البريطانيـة التى قامت بتعذيبهم والزج بهم فى بعض الأحيان فى سجون افريقيا .

وكان يمكن أن يتمثل رد فعل بيجين زعيم الايرجون فى الشعور بالحنق والانتقام أو المزايدة . ولكنه استطاع أن يتغلب على غرائزه لرغبته قبل كل شىء فى أن يتجنب « محاربة اليهود » بكل ما أوتى من قوة وحتى النهاية . ولا شك أن قراره هذا هو احد القرارات الهامة التى سيخلدها التاريخ .

وهو المبدأ الذى لن يتخلى عنه بيجين حتى أثناء مأساة « التالينا » الشهيرة . وكانت الدولة اليهودية قد نشأت لتوها . ولم يعد «للايرجون زفاى ليومى » وجود كقوة عسكرية مستقلة ولكن المفروض أن هذه الحركة انضمت الى جيش الدفاع اليهودى الجديد . والتالينا هو الاسم الذى يوقع به فلاديمتر جابوتنسكي كتاباته . ولكنه بصفة خاصة اسم احدى سفن الايرجون التى امتلأت بالأسلحة (٥٠٠ بندقية و ٢٥٠ مدفعا رشاشا تم شراؤها من فرنسا) وكانت تنقل ٨٠٠ مهاجرا . وكان من المقرر أن ترسو السفينة فى كفار فيتكين . وقررت الايرجون انزال أسلحتها دون أن تطيع تعليمات الحكومة . وتم توقيع اتفاق بين بيجين ومبعوثين من دافيد بن جوريون رئيس الحكومة المؤقتة (الذى لم يلتق أبدا ببيجين خلال أعوام المقاومة) . ولاتزال بنود هذا الاتفاق حتى اليوم موضع جدل لا ينتهى ولا يمكن لأحد أن يهتدى فيه الى نتيجة . فكانت محنة عصيبة على أية حال . وهى أول وأفجع محنة أيضا شهدتها الدولة اليهودية الناشئة .

ودعا بن جوريون حكومته للاجتماع قبل أن يوجه انذارا أخيرا لزعيم الايرجون . وفيه قال لأعضاء حكومته : « ان الأمر غاية فى الاهمية . اذ لا يمكن أن تكون هناك دولتان . كما لا يمكن أن يكون هناك جيشان . ولن نسمح لبيجين أن يفعل ما يشاء . وعلينا أن نقرر ما اذا كنا سنعطيه الحكم، أم اذا كنا سنأمره بوقف نشاطه المستقل . واذا لم يذعن فسنطلق النيران » .

ونحن نعرف باقى الرواية . فبناء على أمر من بن جوريون أصدر ايجال الون رئيس « البالماخ » — (احدى وحدات الجيش) — أمرا الى رجاله باطلاق النيران . فأشتعلت النيران فى السفينة بعد أن أطلقت عليها أربع قذائف . وتم اخلاؤها من الجرحى وكان بيجين آخر رجل غادر السفينة المشتعلة .

وقال الأسد العجوز فيما بعد أن مسألة التالينا من اشد القرارات المؤسفة التى لم يسبق له أن اتخذ مثلها فى حياته . ومع ذلك أضاف يقول : « انني اذا اضطررت الى اتخاذ مثل هذا القرار مرة أخرى فسأفعل » .

ترى هل بيجين يفكر حقا فى ثورة مسلحة كما أشار بعد ذلك ؟ الأمر المؤكد أنه كان يدرك أن هذه الحادثة هى أول تحد وجهه لحكومة اسرائيل المؤقتة الهزيلة وكان من المفروض الا يلين .

وايا كان راينا فى هذه الحادثة فقد ارسى بن جـــوريون ـ باراقة دم يهودى على ضفاف فيتكين ـ بصفة نهائيـــة أسس الدولة اليهودية ومنحها قوام وجودها وعمودها الفقرى : وهو مصلحة الدولة .

وهنا أيضا برهن مناحم بيجين على قدرة غريبة على ضبط النفس واكد لرفاقه اليمين الذى أقسمه : « أننا لن نوجه اسلحتنا ابدا الى اشقائنا » . وفى مساء نفس هذا اليوم تحدث الى الأذاعة وتخلل خطابه صوت نحيبه . وفى كتاب « ثورة اسرائيل » كتب مناحم بيجين فيما بعد يقول : ســخر ابطال عظام كثيرون من « سرعة انفعالى » عندما جلسوا يســتمعون الى خطابى . فليسخروا . فهناك دموع يجدر بالمرء ان يفخر بها والا يحمر خجلا منها . الدموع لا تنهمر عادة من العيون . ولكنها أحيانا تنبعث من القلب مثل الدم « وأضاف بيجين يقول : فلم تقع حروب اخوية كان يمكن أن تقضى على الدولة اليهودية قبل مولدها . وعلى الرغم من ذلك لم تقع حــرب اهليـــة » .

وناضل مناحم بيجين فى الظل من اجل احياء شعبه ، ولم يسع لمجد او سلطان . وقال البعض بشىء من السخرية « أن الارجــون كانت هيئة امدادات للوكالة اليهودية » وغداة أعلان الدولة اليهودية وضــع مناحم بيجين حركته تحت تصرف الحكومة الاسرائيلية ولم يعد يعمل فى الخفاء . ولشدة تمسكه بالحق ترك لغيره مهمة جنى ثمار النضال المشترك . وحذا بذلك حذو غاريبا لدى (احدى الشخصيات التاريخية التى كان يعجب بها الى جانب هرتزل وجابوتنسكى) هذا الرجل الجمهورى الذى تكيف مع الملكية املا فى قيام الوحدة الايطالية .

ولم يشعر بن جوريون بيجين بأى ارتياح بل والأكثر من ذلك انه ظل يكن لزعيم المعارضة الجديد شعورا بالازدراء الشديد وكثيرا ما كان يتجاهله ويتجنب ذكر اسمه . واذا ما اضطر الى توجيه الكلمة اليه فى الكنيست « البرلمان الاسرائيلى » فكان يناديه بالنائب الذى يجلس الى جانب دكتور يوحنان بادر « أو » هذا الشخص .

أما بيجين فقلما هاجم ذلك الرجل ، الذى ربما يكن له شبه اعجــاب خفى ، هجوما مباشرا وشخصيا . فقد حارب سياسته مرغما بكل ما أوتى من بلاغة فى الأسلوب .

وعندما اقترحت حكومة بن جوريون التعويضات الالمانيـــة ، وذلك الاتفاق الذى ابرمه بن ناحوم جولدمان المستشـــار أو يناور ، ثارت ثائرة

بيجين . ولا شك أن المسألة أصابت الوتر الحساس فكتب يقول فى كتاب « ثورة اسرائيل » . اننا لن ننسى لسلامة مستقبلنا وربما لسلامة مستقبل البشرية ما حدث فى قلب أوروبا المتحضرة فى هذا القرن الذى تحققت فيه الحضارة الالية . « وثار ونظم مظاهرات أمام البرلمان ، وأعد حملة وادلى بخطب عديدة . وبلغ فى عنفه أمام البرلمان الحد الذى أوى الى ايقافه عن العمل لمدة ثلاثة أشهر » .

غير أن شخصية بن جوريون كانت على الرغم من كل هذا تثير اعجابه الى حد ما . ففى شهر يونيو عام ١٩٦٧ أغلق ناصر مضيق تيران وسحب أوثانت قواته . وباتت اسرائيل مهددة بالاختناق وبدأت نذر الحرب تظهر فى أفق الشرق الأوسط . وتوجه زعيم المعارضة لزيارة الزعيم العجوز بعد ان ثبتت براءته وانسحب الى مستعمرته بسدى بوكر وطلب منه العودة الى الحياة العـــامة .

ولم يعد ذلك الرسول المسلح « الى الحياة العامة وانما ليفى أشكول — ذلك الفلاح ذو اللهجة الفظة — هو الذى تولى حكومة حرب الأيام الستة واتخذ هذا الرجل الهزيل (الذى لا تزال اسرائيل بأسرها تذكر خطابه المؤثر فى الاذاعة عشية ٥ يونيو حيث تلعثم واضطرب فى الكلام اذ كان يثير العطف) قرارا لم يتخذ مثله من قبل قام فيه بتشكيل حكومة وطنية ودعا لأول مرة اعداء حزب « ماباى » النازيين للاشتراك فى الحكومة ، مثل بيجين وعزرا وايزمان اللذين أصبحا وزيرين فيها .

وهكذا اصطبغ اليمين « بالصبغة الشرعية » ، وتولى الحكم اخيرا . وخرج من عزلته السياسية فى نفس الوقت الذى صعد فيه الحزب .

وغداة الحرب أبقت جولدا مائير — خليفة ليفى أشكول — على الوحـــدة الوطنية حتى عام ١٩٧٠ عندما استقال بيجين واصدقاؤه حين قـــررت الحكومة الاسرائيلية الموافقة على الخطوط العريضـــة « لمشروع روجـــرز » الذى يقضى باعادة الأراضى المحتلة وتفتيت ما يعتبره اليمين الاسرائيلى حتى الآن « اسرائيل التاريخية » .

ومرة أخرى عادت كتلة ليكود الى المعارضـــــة الا أنها اصبحت قوة معترفا بها . فقد انضمت الى المجموعة الوطنية وبات فى وسعها التطلع الى السلطة . وتشهد على ذلك الأرقام فمن عام ١٩٣١ وحتى عام ١٩٧٠ بدات تتغلغل تدريجيا وبصفة دائمة بين الناخبين . ففى الكنيسست لم يعد بيجين

يفكر بهذه العقلية التى يفكر بها « الغريب » . فقد حــرص على تهذيب عباراته وان خانته هذه العبارات فى بعض الأحيان . وفى عام ١٩٧٤ أصبح اسحاق رابين رئيسا للوزراء . فصاح زعيم المعارضـــة من فوق منبره قائلا : لم نر منذ سفينة نوح عشا من الحمائم « مثل عش حكومة رابين . وأرى من واجبى الوطنى أن اطيح بهذه الحكومة » .

واصبح بيجين منذ ذلك الحين رجلا آخر يتمتع بالشرعية ليس عليه أى غبار بارعا وعلى استعداد لخوض تجــربة الحكم ، دون حاجة الى انتزاعــه .

تعلم السلطة

بعد تسعة وعشرين عاما من معارضة كرسها مناحم بيجين لعبادة التشدد والمواقف المتعنتة ها هو ذا عليه أن يواجه الاختبار العصيب وهو اختبار الحكم .

وحتى ذلك الحين نجح حزب بيجين فى صعوده المتألق دون أن يقدم التنازلات التى عادة ما تسبق أو تتلو التحولات الهامة للأصوات . ولم يحد هذا الحزب فى ظل التسميات المختلفة التى اتخذها وفقا لرغبة هذه التجمعات (حيروت ، وجحال ، وليكود) عن مبادئه الكبرى .

وظل متمسكا بأهم هذه المبادىء ، ولم يغير موقفه بشأن « أحكامه الأساسية » .

ومنذ عام ١٩٧٠ تشير الأرقام الى أن اليمين اخذ يحقق تقدما مستمرا بين الناخبين (الأمر الذى يتعارض الى حد ما مع التحليلات القائلة بأن اقتراع ١٧ مايو كان « اقتراعا مزاجيا » فقد زحف على الوسط كما تعدى على ميادين حزب العمل التقليدية دون أن يغير رغم ذلك من فكرة . ولم تلعب ظاهرة « الاستنجاد بالوسط » على حد تعريف والتر ليماين ، تلك الظاهرة المعروفة لدى علماء السياسة أى دور فى هذا الصدد : فلم تتقارب كتلة ليكود من ناخبى الوسط وانما هم الذين انضموا اليها .

ولكن الحكم له منطق مختلف ، اذ تحكمه نظم مختلفة ، وضرورات أكثر أهمية من التأثيرات الانتخابية . والامثلة السياسية على سياسات المهادنة عديدة ، وكثيرا ما ذكرت بشأن مناحم بيجين . أن جى موليه الرجل الاشتراكى هو الذى أدى الى استعجال الحرب الجزائرية ، والجنرال ديجول هو الذى وضع حدا لها بتوقيع اتفاقيات ايفيان . وجون كيندى الحر هو الذى شن الحرب الفيتنامية ، وريتشارد نيكسون ذلك الرجل المناهض للشيوعية هو الذى وقع اتفاقيات باريس .

أن تولى بيجين مسئوليات الدولة ، وتحوله من الايديولوجية الى السياسة قد شفاه من داء الحصبة المثالية الذى يصيب المعارضة فى

طفولتها . ولكنه ما أن واجه حقائق الحكم ، حتى أسرع بتخفيف لهجته . وعلى أية حال هذا ما كان يهمس به بعض الصحفيين بقولهم ستشهدون وقوع بعض المفاجآت .

ولم تلبث أن وقعت المفاجآت فعلا . ولكنها لم تقع حيثما كانت منتظرة بالضبط فقد كشف هذا الرجل عن شخصية قوية الى جانب فكر رجل استراتيجي محنك . وبدا صبورا . وكلما كان يعي ظاهرة استئناس الناخبين أخذ يعد للامر عدته ، مستخدما القوة واللين على التوالى ، ويحسب خطواته ، ويعمل خطوة خطوة . وبعد ستة أشهر ارسى سياسته الاقتصادية تلك الثورة الاقتصادية التى قضت على ثلاثين عاما من النظام الاشتراكى الموجه ، فقام بتقويم الليرة ،والغى الرقابة على الصرف ، والغى التعريفات المجحفة التى فرضت على السفر . ولكنه بدأ أولا بتحديد أهدافه :

فكان هدفه الأول هو تشكيل حكومة جديدة : فقد حصل بيجين على أغلبية فى الكنيست بانضمام الدينيين اليه من حزب ماندال والمتشددين من حزب أجودات اسرائيل — الذين وعدهم بوعود سرعان ما وصفت بأنها وعود دينية — وهى اغلبية ضئيلة بالطبع (٦٣ مقعدا من ١٢٠) ولكنها متجانسة الى حد كبير اذ تسمح له بحرية التصرف وتوجيه سياسته . وهكذا وبعد أن اطمأن الى مسانديه أمكنه أن يرفع مزايدته مع الحركة الديمقراطية من أجل التغيير بزعامة ايجال يادين البروفسور الجنرال عالم الحفريات الذى جاء حديثا الى المسرح السياسى والذى يأمل بمقاعده الخمسة عشر فى البرلمان أن يكون عمله مساعدة ، ولكنه وجد نفسه مستبعدا فى بادىء الأمر . ثم إكتسبه بيجين الى صفه مرة أخرى بعد ستة أشهر بمقابل زهيد ، وبنحو لم يكن له فيه دور كبير .

وكان هدفه الثانى : اشعال النيران فى حزب العمل واثارة الفرقة بين صفوفها . انها عملية ديان التى تمت بنجاح وكانت مقدمة لعمليات انفصالية اخرى تلتها .

فقد عين رئيس الوزراء هذا الجنرال الأعور بطل حرب الأيام الستة — الذى انتخب على قائمة حزب معراخ — فى منصب وزير الخارجية . ووافق موشى ديان . فمنذ فترة طويلة وهو يشعر بعدم الارتياح بين اسحاق رابين الذى يتجاهله وايجال الون خصمه القديم الذى يكرهه كل الكراهية . كما أنه غير محبوب داخل حزبه حيث لم يتردد البعض فى القاء

تبعات الأخطاء « التى سبقت حرب الغفران عليه . وظل واحدا من هذه الشخصيات البارزة التى تتصدر القوائم الانتخابية ولكن لم يعد أحد يستشيره داخل حزبه .

وبدأ ديان — الذى كانت احدى قدميه داخل الحزب والاخرى خارجه — يبحث عن فرصة لمقاطعة هذا الحزب . فصرخ فى شهر مارس عام ١٩٦٩ بقوله : « أننى أشعر باننى أقرب الى بيجين من بنحاس سابير فى مجال السياسة الخارجية » . وفى أواخر عام ١٩٧٤ فاجأ الجميع حين وقع على اقتراح من كتلة ليكود يطالب بأعلان الضفة الغربية ارضا محررة وكثيرا ما لوح باستقالته دون أن ينوى ذلك فعلا . وأثارت خيانة ديان الذى « انزل » فى أرض « العدو » بعض الاضطرابات فى حزب العمل . وقد وصف اسحاق بن اهارون السكرتير السابق للهستدروت هذا الأمر بأنه (أوتو ستوب سياسى « بينما ذكر البعض فى هذا الصدد كلمة اقل ارتباطا بالمصطلحات السياسية واضطر كل منهما الى التسليم بأنها عملية ناجحة رغم انهما رفضا الأعتراف بذلك صراحة . فقد أكتشف بيجين ثغرة وعرف كيف يستغلها . الأمر الذى حظى بالتصفيق سرا فى الاروقة .

الا ان الأمر لم يقتصر على ذلك فقد استمرت استراتيجية عملية . « الاختطاف » فى جميع الاتجاهات . فقد جند أبا ايبان وزير الخارجية السابق فى حزب العمل لمهمة تفسيرية فى الولايات المتحدة — ليؤكد — وهو يضع يده على قلبه — ان المراد هو حماية « الاتفاق الوطنى » وليس السياسية الحكومية البحتة — وبذلك اتضح الفارق . الا أن هذا المسعى قد أصاب الهدف المنشود تماما وهو اثارة البلبلة بين صفوف حزب العمل وجاءت الضربة القاضية بانضمام الحركة الديمقراطية من اجل التغيير الى الائتلاف فقد انضم حزب يادين ، الذى كان يعتزم تغيير كل شىء وأعرب عن تلك الأمنية أمام ناخبيه ، الى الحكومة خافض الراس وخضعنا لشروط بيجين . وكانت الحكومة الاسرائيلية قد شكلت منذ خمسة أشهر ، وفرضت اتجاهاتها الرئيسية (ولا سيما ثورتها الاقتصادية) . ولم يبق أمام يادين وتامير واميت وكاتز سوى الانضمام الى هذا الاطار .

وكانت نتائج ذلك مؤلمة بالنسبة لحزب العمل . فقد وجد نفسه معزولا فى المعارضة اذ احتفظ بيجين بعدد كبير من رجال السياسة الذين عينتهم حكومة رابين فى الوزارات والادارات ولكن الى متى ؟

أن لينين هو الذى كتب يقول أن أى ثورة لا تقوم الا حين يطاح بادارة وبيروقراطية نظام الحكم السابق . وبيجين فى هذا المفهوم غير ثورى . أو أنه ثورى شديد الصبر والتأنى .

أما الهدف الثالث فقد تمثل فى اكتساب الرأى العام وفى هذا الميدان بذل بيجين قصارى جهده . ففى رأى رئيس الوزراء الجديد أن النظام الديمقراطى هو نظام السلطة . ففيه تعطى الأولوية للمؤسسات التى يراد تثبيتها فى مواجهة مفاوضات الأروقة . وجماعات الضغط التى كانت تتحكم فى كل الأمور فى عهد حكومة حزب العمل .

فهل يعنى ذلك أن نظام الحكم اصبح رئاسيا ؟ بكل تأكيد ــ فقد قال ناحوم جولدمان الذى لم يبد مرتاحا لهذه المسألة « ايا كان رأينا فى هذه الحكومة الا أن لها رئيسها » . وبدأ مجلس الوزراء ينعقد ويناقش ويتخذ القرارات دون أن نجد فى الصحف فى اليوم التالى ــ كما كان مألوفا ــ محضرا مفصلا للجلسات . أن السرية ــ ذلك العنصر الرئيسى فى مسرحية السلطة « كانت مكفولة . الامر الذى لا يعنى أن بيجين ليس ثرثارا .

أن بيجين خطيبا بفطرته ومنذ نعومة أظافره . وهو بلا شك رجل السياسة الاسرائيلى الأول الذى جعل من الكلمة أداة للحكم (أكثر من سلفة بن جوريون الذى كان قليل الكلام) ففى رأيه أن الحكم يأتى بعد الكلمة . وهو بحركته المسرحية ، وميله الى التحليقات الوجدانية وبأسلوبه اللاذع اذا ما اقتضى الأمر يؤثرك أو يثير استياءك ، ولكنه لا يمكن الا يثير انتباهك .

فبالكلمة نسج بيجين شيئا فشيئا رباطا مباشرا مع الشعب خلال الأيام الأولى من حكمه متجاوزا بذلك الاحزاب . نسجها بالكلمة وكذلك بمجموعة من الاشارات والتقاليد والاحتفالات التى استغلها ببراعة (وبصورة خطيرة فى بعض الأحيان) .

وفى كتابه « ثورة اسرائيل » أشار بيجين الى كلمة دزرائيلى رجل الدولة اليهودى الانجليزى فكتب يقول : « أن الشعوب تحكم أما بالقوة أو بالتقاليد » . وما أن كلف زعيم كتلة ليكود بتأليف الحكومة الاسرائيلية الجديدة حتى توجه الى حائط المبكى كى يستغرق فى التأمل والصلاة . ذلك المصدر الشرعى للحكم كما لو كان هذا المكان الرفيع المكانة فى التاريخ وفى الدين اليهودى يعطى قوة للحكم .

أتراه ايمانا ؟ نعم ولا فى نفس الوقت . اذ أن الايمان والدين مرتبطان ارتباطا وثيقا فى رأى بيجين حيث كتب يقول ايضا فى « ثورة اسرائيل » أن حائط المبكى كان بالنسبة لليهود — منذ بدأوا يتعرضون للاذلال — محرابهم الذى يصلون فيه من أجل تحقيق امانيهم ولا ينبغى على الوقحاء ان يستنكروا هذا الايمان فطريق التاريخ حقيقة لا خيال . « وفى عشية روش هاشانا (ليلة رأس السنة اليهودية) قال بيجين فى خطابه الذى تحدث فيه عن امانية « انى انوب عن الفقراء والمؤمنين » . وقال خلال رحلته الى واشنطن « أنه يعتبر نفسه أداة الأله » كما أعلن خلال زيارته الرسمية لبوخارست عن يهوديته التى يرفعها كالعلم ليرفرف فى كل ريح ، والتى يستخدمها كدرع واحد » .

أتراه رمزا وضعه بيجين فى خدمة دبلوماسيته ؟ أم انهـا براعة رجل سياسى يعرف كيف يحكم شعبا مولعا بالتقاليد ، حتى وان كان لا يتمسك بهذه التقاليد على الاطلاق ؟ كتب يوسف لابيد الصحفى فى صحيفة معاريف الذى رافق رئيس الوزراء فى تنقلاته فى رومانيا يقول : « فى هذه اللحظة المؤثرة فى معبد بوخارست من ليلة السبت ، وعندما بدأ كورال من الشباب نشيد « يرشاليم شل راهاف »شوهدت الدموع تنساب على وجنتى بيجين واليهود يتهامسون « أنه يبكى » بينما راحت النساء يبكين معه ، وفى هذه اللحظة المشهودة فقط أدركنا أن مناحم بيجين هو أكثر رؤساء الوزراء الذين حكموا اسرائيل ايمانا باليهودية .

ومن قرارات مناحم بيجين التى تثير الجدل ، قرار يجدر بنا أن نتأمله حيث أنه يكشف عن طبيعة الرجل : « قيوم هاشواه » هو يوم الاحتفال بذكرى ضحايا المذبحة النازية : « أن يو » « ٩ آف » يوم معروف فى اسرائيل ولدى الطوائف اليهودية فى انحاء العالم بأنه يوم دمرت فيه جحافل جيش تيتوس الرومانى معبد القدس ولحرص بيجين على أن يخلد ذكرى تعذيب يهود أوروبا اقترح الاحتفال بذكرى هذين اليومين فى يوم واحد ، ليربط التاريخ اليهودى المعاصر ويثبته فى تراثه القديم الذى يرجع الى الاف السنين .

أن بيجين هو بلا شك رجل الطقوس . وأى احتفال فى نظره يقسم بالقداسة ، رأى لقاء يعتبر لقاء تاريخيا وكل نقاش له أهميته . « فلم يحدث أن تأثرت ابدا برجل مثلما تأثرت بجابوتنسكى « هذا ما قاله فى


ختام لقائه مع الرئيس كارتر كما صرح أمام الطائفة اليهودية فى بودابست قائلا : « أننى لم أتأثر ابدا مثلما تأثرت عند اعلان استقلال اسرائيل » .

أن حب عبارات التفخيم هذا يمكن بسهولة أن يبدو فعالا ، فربما يميل بيجين الى الأسلوب الدرامى . ولا يمكن ان يعتبر ذلك من قبيل التمثيل ، حيث يبدو الرجل صادقا مخلصا فى مشاعره وفى مقالاته .

أن مناحم بيجين رجل طقوس ورجل مبادىء ، وهو ينتمى الى جيل الساسة الذين ظهروا فى بداية هذا القرن . هذا الجيل الذى لم يعلن بعد أفوله . فمع صعود رابين وبيريز وآلون الذئاب الصغار فى حزب العمل ، الذين تغلب عليهم الروح العملية ، والذين تخلصوا من الآثار المذهبية التى تركها كبار السن فى الحزب — ساد الاعتقاد فى فترة من الفترات فى اسرائيل بأن الايديولوجيات قد انتهت . أن المجتمع الاسرائيلى مثل المجتمعات الاخرى فى انحاء العالم قد خلق طبقة جديدة من التكنوقراطيين لا يتحدثون الا قليلا وينجزون بسرعة ولا يبالون بشىء . ويبدو أن عملية التطعيم قد فشلت بسبب السأم فقد لفظ الناخبون اسحاق رابين واستدعوا على رأسهم من يعارضه فى الرأى . فأحدهما من جيل الصابرا الجديد أما الاخر فيهودى (بالمفهوم التقليدى) واحدهما عملى ، والاخر ابن مخلص لنهج ونظرية ومدرسة فكرية . وأحدهما من « الطليعة » ، والاخر ينتمى الى هذه الفئة من الساسة القدامى « الاباء » (الامر الذى يفسر — كما يقول بعض المحللين تصويت عدد كبير من الناخبين السفرديين الذين يميلون بقدر كبير — كما يقال — الى مفهوم الحاكم السياسى الابوى .

أن جيل الصابرا الذى طالما انتظر اللحظة التى يحكم فيها ، قد أثبت انه يعجز عن الامساك بزمام الدولة اذا لم يبحر بسفينة الحكم صوب هدف يراه على مدى النظر . فقد تولى اسحاق رابين الحكم فى وقت عصيب فى بلد كان لايزال مهتزا من جراء حرب الغفران ، ويسعى لالتقاط انفاسه مرة أخرى ، ويبحث عن رجل جديد — ولم لا « رجل القدر » .

لقد انتهت فترة حكم رابين الاعتراضية ويبدو أن التاريخ يضرب دائما ، موعدا آخر ولكن لا يتواعد أبدا مع نفس الرجل . أن انتصار بيجين هو أيضا فشل لاسرائيل — الصبار .



اسرائيل الجديدة


ان الذهاب الى مكان آخر يعد اثما لهذا الجنس والفضيلة السرية الكبرى والرسالة السامية لهذا الشعب ...

أن أى عبور يعد بالنسبة لهم مثل العبور الشاق للصحراء فالمنازل الاكثر راحة وثباتا تعد بالنسبة لهم بمثابة خيمة فى الصحراء .

الأمر الذى تولد عنه عذاب لا مثيل له واقسى خصومات داخلية ثارت بين روحانية وسياسية .

شارل بيجى

((شبانيا))



من بن جوريون الى بيجين

قالوا أن هناك نقاطا مشتركة قليلة بين اسحاق رابين ومناحم بيجين . وفى الواقع ، فان أقل المراقبين علما بالعمليات الغريبة للسياسة الاسرائيلية يمكن أن يلاحظ أن كل شيء يباعد بينهما : فأحدهما قائد عسكرى سابق يحاول ادخال أساليب صارمة فى عالم السياسة ، ولا يقسم الآخر يمينا سوى بالديمقراطية ويهتم أقصى اهتمام بحقوق كل فرد . أن كل شيء يباعد بينهما : المظهر والثقافة والأفكار السياسية والأسلوب . أن رابين هو الصابرا . لقد ولد فى البلاد ولذلك لم يكن يتسم بعيون يهود الشتات بيد انه لا يتحلى ايضا بصفاتهم . ويصل بيجين الى الحكم محاطا بالاساطير فهو رجل « ثورة اسرائيل » الذى ناضل حتى من قبل اقامة الدولة . وهو رجل حنكته التجارب ، ولعله ليس فى طليعة فريقه ولكنه يمثل من يمكن أن يطلق عليه لفظ « اليهودى الأب » ، وكأنه اشبه بجد عطوف ينحصر اهتمامه الوحيد فى مصلحة العائلة . أنه — على أفضل تقدير — يشبه بن جوريون وقد تخلص من المرارة او على أسوأ تقدير يشبه ديجول ولكن فى صورة يهودية . ولقد أخذ عن الأول حاسة الحدس والتكهن واحيانا لهجة التنبؤ وعن الثانى أخذ مجد تلك الأقليات التى عقدت العزم ذات يوم ، وهى صفر اليدين ولا يدفعها الا ايمانها وحده — على أن تحمل لواء الثورة .

على أنه لم يؤت عناد الولد العاق الذى تميز به بن جوريون ولا الكبرياء التى انقضى زمنها والتى عرفت عن ديجول . بل انه متواضع لأقصى الحدود حتى ليبدى استعداده على عكس الاعتقاد السائد عنه بصفة عامة — الى الاصغاء طويلا لمعارضة . وعلى عكس ابا ايبان فأنه يجيد الانصات الى الاخرين .. فهو يعتقد أن هذا هو أقل قدر من اللباقة التى يتعين عليه أن يبديها لمحدثه . ورغم أن تواضعه خليق بأن يوصف بالتواضع اليهودى الا انه لا يجعله يغفل قط عن الأهمية التاريخية للمهمة التى يضطلع بها ولا يتنافى تواضعه مع حماسه وطموحه من أجل شعبه : أو صموده الذى يسير على هديه الأمر الذى يتنافى بالنسبة لآخرين مع التسابق لجمع الثروات المادية أو اشباع رغبات الرفاهية البورجوازية . لقد كرس حياته كلها لتحقيق هدف كبير . فهو لا يريد السلطة لمجرد الرغبة فى توليها . ومازال المسكن

المتواضع ذو الحجرتين الذى يقطنه منذ ثلاثين عاما ، فى الطابق الأرضى من احدى العمارات القديمة فى قلب تل أبيب — مفتوحا لاستقبال الجميع . بعد ظهر يوم السبت كما جرت العادة قبل أن يتولى السلطة . وذلك لرغبته فى أن يكون باستمرار على اتصال مباشر بالشعب وعلى علم برغباته ولآماله واحتياجاته .

ويقول بيجين : « لقد تربيت وأنا طفل صغير على أن ارضى بالقليل فى حياتى أن حب الأسرة اليهودية وضرورة احترام كل انسان هما النبعان اللذان نهلت منهما فى بيت والدى » .

من هنا كان هذا الأدب الجم المبالغ فيه احيانا — الذى يبديه بيجين دائما تجاه خصومه السياسيين بل وتجاه أعدائه أيضا . ولكن اى أعداء قد يجيب بيجين على هذا السؤال متبعا اسلوب ديشيليو — الذى كثيرا ما يستشهد به — قائلا انه ليس له من أعداء سوى أعداء دولة اسرائيل .

وهو فى غمرة نشاطه اليومى يجعل شغله الشاغل فكرة واحدة ثابتة مؤداها انه مستودع ارادة الشعب والطموح القومى فهو يعتبر نفسه رسولا يضطلع برسالة من أجل خير شعبه وذلك ما يفسر تصريحه الذى يقول فيه عن نفسه أنه « اداة الخالق » ذلك أن نظرته للعالم هى أولا نظرة يهودية تقليدية فلا شىء يحدث فى الحياة الدنيا دون مشيئة الخالق وتنظيمه وتدبيره . وهكذا فأن مهمته وقدره التاريخى نابضان اساسا من «ارادةالله» ان بيجين — حينما يتحدث يحتفظ فى ذهنه بأربعة آلاف عام من التاريخ اليهودى .

وهناك بعض النوادر التى تحدد ملامحه : من ذلك أن احد زملائه البرلمانيين فى الكنيست ممن ظلوا لسنوات عديدة يجاورونه فى الجلوس يقول : أبدا لم أر بيجين — حتى فى أشد الأيام قيظا — يحضر الجلسات العامة مرتديا قميصه فقط ولكنه يأتى دائما لابسا رباط عنق .

وذات يوم بعد أن صار رئيسا للوزراء ، اذا بزوجته اليزا تنبهه الى أنه لم يتناول أفطاره بعد ... فأجاب عليها مشيرا الى حرسه الخاص بقوله : « هل اهتممت ياعزيزتى بمعرفة ما اذا كان هؤلاء قد تناولوا افطارهم أم لا . اليسوا اخوتى ؟ » .

فى شهر سبتمبر سنة ١٩٧٧ وبينما كان حلف العلاقات الاسرائيلية الأمريكية يحتل مركز الصدارة فى أحداث الساعة ، سأل احد صحفى

جريدة « معاريف » رئيس الوزراء عما اذا كان يمكنه الكشف عن مضمون رسالة بعث بها الى الرئيس كارتر . ويجيب بيجين بقوله : « أن أول تحذير يضعه دابى جبرشوم (هو استاذ فى القانون اليهودى ومشرع) هوانه لايمكن الزواج بامرأتين أما التحذير الثانى فهو انه لا يجب الاطلاع على رسالة ليست موجهة اليك » .

ومن عادة بيجين ان يقول - حينما لا يتوصل بعد مناقشات طويلة مع خصومه السياسيين الى « طريقة تعايش » .. « فلنتفق على أننا غير متفقين ثم نتناقش بأدب وصبر واحترام متبادل » . فى حين كان « النبى المسلح » بن جوريون - حينما كان يتضح له صعوبة الاتفاق مع خصومه او مع رفاق الطريق - يتخذ القرار بمفرده بطريقة مشابهة تماما لطريقة ديجول أو يصفق الباب خلفه ويختفى فى كيبوتزه بسيدى بوكر الذى كان يعد بالنسبة له مثل قرية كولومبى لين وزحليز (مسقط رأس ديجول) .

ولا يصدر مثل هذا التصرف عن بيجين وهى نقطة من نقاط الاختلاف بينه وبين بن جوريون بيد أن بيجين يعد - مثله فى ذلك مثل رئيس حكومة اسرائيل السابق - « مفتون بالصهيونية وقد كون نفسه ، مثل بن‌جوريون - فكرة معينة عن دولة اسرائيل وشعبها . وكان بن جوريون يقول « عم سيجولا » ، ذلك التعبير الذى يمكن ترجمته الى « شعب الصفوة » ولقد راى كل منهما أنه ليس هناك ضرورة لأن يكون المرء مجنونا حتى يصبح صهيونيا ولكن ذلك يساعد كثيرا . ويهتم بن جوريون بالمصلحة العامة وحدها ، أن الشعب يستكين حين لا يكون امامه مثل أعلى كبير ، ويجب النظر الى بعيد واعداد الأمة لتحديد قواتها وروادها .

وثمة نظرة روحانية واحدة للامور تجمع بينهما رغم أنها بالنسبة لبن جوريون نظرة روحانية تلقائية على حين انها فى حالة بيجين نظرة دينية وتقليدية لليهودية كما تجمع بين الرجلين نفس فلسفة العمل التى درج بن جوريون على تلخيصها بما يلى : « أن مستقبلنا لا يتوقف على ما يقوله غير اليهود بل على ما يضعه - اليهود أنفسهم » ويرى كل منهما - كما يقول فاوست بطل جوته - « فى البداية كان هناك العمل ، حتى واذا كان بيجين يرى أن الكلمة هى صورة من صور العمل .

ولقد جعل كل من بن جوريون وبيجين من دراسة التوراة مسألة قومية وكان بن جوريون يقول : « انى أعتبر يوشوع هو بطل التوراة ، انه لم يكن مجرد قائد عسكرى بل كان المرشد لأنه توصل الى توحيد قبائل

اسرائيل . وربما يفضل بيجين موسى رجل التاريخ ابن الشعب الذى يمثل التواضع نفسه على يوشوع القائد العسكرى .

أن الخيارات السياسية ليست هى الشىء الوحيد الذى يختلف فيه دافيد بن جوريون عن مناحم بيجين لقد كان الأول عنيدا بقدر ما يتصف الثانى بالصبر ، وكانت ثوراته عنيفة وغضبة يستمر لفترة طويلة ويبدو اشبه بحيوان جريح .

وقال عنه ميشيل بارزوهار وهو أفضل من كتبوا سيرته أن بن جوريون كان يعد فى اخر أيام حياته بمثابة « كهل سريع الغضب ، منتقم وحقود » وليس هناك شىء من ذلك لدى بيجين الذى يتسامح بسرعة لأن اليهودية تفرض عليه ذلك ، والذى لا يستطيع أن يضمر الحقد لأن عقيدته الأولى قبل حب أرض اسرائيل ـ هى حب الشعب .

« يجب تجديد معركتنا للعودة الى صهيون » . يعتقد بيجين فى الواقع أن الصهيونية لم تقل كلمتها الاخيرة مع أن ذلك يعد أمرا حيويا بالفعل أكثر من اى وقت مضى ، وحينما نرى تطور الوضع بالنسبة لليهود فى الاتحاد السوفيتى وفى بعض الدول العربية أو دول أخرى فى أمريكا اللاتينية وطوال ٢٦ عاما قضاها زعيما للمعارضة ، كان يختتم كلمته فى كل مرة يتحدث فيها الى اى منظمة الشباب اليهودى ، فى الشتات بنداء حماس هو : « لقد حان الوقت للعودة الى البيت » . وفى حديث طويل كان قد ادلى به منذ عدة سنوات للاذاعة الفرنسية ، قال ردا على سؤال خاص بالرسالة التى يرغب فى توجيهها الى الشباب اليهودى فى فرنسا : « اننى اعتقد انه يتعين على هؤلاء الشباب أن يعكفوا أولا على دراسة تاريخ ولغة شعبهم حتى يدركوا عظمة وبطولة اسرائيل ثم ، عليهم أن يفكروا أيضا فى العودة ليشاركوا فى اعادة بناء أرض اجدادهم والنهوض بها . أن بيت ابائهم ينتظرهم » .

ويعتقد مناحم بيجين انه ليس هناك عقيدة تتفوق على الصهيونية بل وانها مازالت الايديولوجية الوحيدة والحركة الوحيدة التى لم تخن اهدافها « يتعين علينا أن نعود عودة حقيقية الى الصهيونية ، بعد عودتنا الى أرض صهيون » . أن ما يريده ليس هو صهيونية الخوف ، ولكن حركة التمجيد والحماس . وهو يدرك تماما ان الصهيونية قد اضطرت بموجهتها للحقائق ـ الى مراعاة الممكن بيد انه يعمل للعودة الى الحلم : فهو يريد أن يحل الأنبياء والصالحون محل الاداريين فهل اختفت صهيونية الرواد ؟ اذن

يتعين مساعدة كل هؤلاء الذين يرغبون فى احيائها أمثال « شباب كتلة الايمان الرائعين » . ويعتقد بيجين مثل بن جوريون ـ ان الحركة الوطنية اليهودية لم تحقق حتى الان سوى هدف واحد من اهدافها هو ـ العمل على أن تكون هناك اغلبية يهودية فى اسرائيل . ويتبقى الان الهدف الاخر الذى لا يقل اهمية عن الهدف الأول وهو أن يقيم أغلبية اليهود على هذه الأرض .

فهل يعد بيجين متشائما ؟ نعم حينما ينطلق ـ فى تأملاته مسترجعا احداث التاريخ فيتحدث عن هذا الجيل على اعتبار انه جيل الحروب والطرد والاضطهاد والبؤس والصعوبات والاحلام المجهضة « وحاوبان » اى ابادة ثلث الشعب اليهودى ولكن سرعان ما يعرض هذا التشاؤم قائلا « اننا اليوم فى بداية تحررنا » واذا كان بيجين يستخدم العبارة الآرامية « اتهالتا ديجيولا » فى حديثه عن هذا الموضوع ، فانه يفعل ذلك متعمدا ليوضح انه يلمح الى التحرير الذى بشر به انبياء اسرائيل وحلله فلاسفتها وانتظره الشعب طوال عشرين قرنا وليس الى أى تحرير عادى لا يستند الا على القوة الوحشية . ويقول بيجين فى هذا الشأن « اننى لم أقبل على الاطلاق المفهوم المشار اليه فى التوراة :

الحياة بالسيف اننا هنا بقوة الحق فانى أؤمن بقوة الحق وليس بحق القوة .

ويضيف قائلا : « لم يكن لنا دولة طوال ١٨٧٨ عام ، ولكن كان لنا دائما وطن . ولقد أحببناه عن بعد وكنا نشعر بالحنين اليه . وصلينا لتكون أرضه خصبة دائما . أن الوطن هو البلد الذى ولدت فيه أو ولد فيه اباؤك او أجدادك . ولقد كانت العبارة التى قالها يوسف اجنون الحائز على جائزة نوبل فى الادب بسيطة ولكن عميقة : « لقد ولدت فى احدى مدن الشتات بسبب كارثة تاريخية ـ هى هدم امبراطور روما للقدس . بيد اننى كنت اعتبر نفسى دائما فى أعمق أعماقى ، وكأننى ولدت بالفعل فى القدس .. وعلى أية حال فلقد ولدنا جميعا فى القدس » .

ويعتقد بيجين تماما ـ مثل الشاعر الاسرائيلى الاخر يودى تسفى جرينبرج الذى يتغنى بروح اسرائيل الممزقة فى نفس الوقت بتطلعها الى الوحدة . أنه « سوف يأتى اليوم الذى تلتئم فيه كل المتمزقات التى احدثها تيتوس » .

اذن فهى صهيونية صافية ، دون خوف أو لوم ، موجهة تماما نحو المستقبل دون أن تنفصل مع ذلك عن جذورها .. وهنا أيضا يكمن احد الاختلافات التى تفرق بين بيجين وبعض أسلافه . ترى ما هو هدف الصهيونية ؟ بالنسبة لمناحم بيجين تعد الاجابة واضحة : « عند مدخل متحف جابوتنسكى فى تل أبيب ، توجد هذه العبارة لماكس نوردو « ان امنية روحى هى رؤية شعب اسرائيل فى ارتيز اسرائيل . يحمل على التقدمية الحقيقية ويكون مثالا تحتذى به الأمم وينشر بينها فكرة الاخوة » .

وفى حين نادى بعض المفكرين الصهيونيين ـ الذين يميلون أساسا الى اليسار ـ بالانفصال تماما عن الماضى التاريخى للشتات ، كان مناحم بيجين وأصدقاؤه يعتبرون أن الصهيونية لا يجب أن تقيس بمقياس الخسائر والارباح كل ما اكتسبه الشعب اليهودى فى تشتته ونفيه وحياته فى الاحياء المنعزلة (الجيتو) .

أن مفهوم بيجين عن اليهودية يعد مفهوما تاريخيا . ان تجاهل بعض (الصابرا) للتاريخ الحديث للشعب اليهودى يثير ثائرته : « أن ذلك نوع من التخلف » .

ويقول بيجين مرارا وتكرارا « يتعين على الشباب اليهودى فى الشتات دراسة اللغة العبرية بل والتحدث بها . كنت قد قمت منذ عدة سنوات مضت بزيارة لجامعة كاليفورنيا وطلبت من الطلبة اليهود دراسة اللغة العبرية والتحدث بها . وسألتنى احدى الطالبات : « ولكننا سوف نكون مختلفين »

« وما الضرر فى أن نصبح مختلفين ؟

ـ أن الجاليات اليهودية فى الولايات المتحدة الأمريكية لا يضرها اليوم أن تكون مختلفة .

أن التطور التاريخى للولايات المتحدة يمضى فى اتجاه المثل الاعلى العنصرى . أن كل شخص هناك مختلف . لذلك يتعين على الشباب اليهودى أن يتكلم اللغة العبرية . وسيكون ذلك بالنسبة له جسرا عظيما سوف يسمح له فى يوم من الأيام بأن يلحق بنا على أرض اجدادنا .

« انظروا الى الدرس الجميل الذى يعطينا اياه الأبطال اليهود فى روسيا : أنهم يناضلون من اجل حقوق اليهود هناك أنهم لا يطالبون باقامة مسرح باللغة العبرية ولكن بحق دراسة وتعلم اللغة العبرية والتوراة .

« أما فى الغرب ، فليس من الضرورى الكفاح للحصول على هذه الحقوق اننا نحتاج الى الارادة فقط . ويجب على الشعب اليهودى تحريك كل هذه الطاقات لصالح الشباب سواء كانوا فى الجامعات أو فى أى مكان آخر . وحينئذ يتم تأسيس الأخوة اليهودية الحقيقية . على اليهود حتى وأن لم يصلوا بعد الى اسرائيل — ان يتكلموا اللغة العبرية فى بيوتهم وفى الشارع .

« اننا نعيش اليوم تحت لواء انتصار الحـــركة الوطنية اليهودية أى الصهيونية التى اعتقد أننا لا يمكن ان نجد لها نظيرا فى تاريخ حركات التحرير الاخرى ويتمثل تناقض جيلنا فى اننا نثير بأنفسنا — فى هـذه الأيام التى حققنا فيها الانجازات والنصر والرفعة — الشك والتساؤل عما اذا كانت الصهيونية على حق .

ولا يشك رئيس الوزراء أدنى شك فى عدالة قضيته . وهو يعتقد فقط أنه يتعين تكذيب هؤلاء الذين يرددون أن الصهيونية ليس لها رسالة تؤديها بالنسبة لنوعية الحياة . ومن المؤكد ان الاخلاق العامة قد تعرضت طوال هذه السنوات الأخيرة فى اسرائيل لنكســة . ويعترف بيجين بذلك قائلا : « لقد انتشر نوع من العنف فى حياتنا الاجتماعية مؤخرا . ولقد أصــبح البعض ذئابا وظهرت الرغبة فى الايذاء والهدم والذم . واختفت بعض قواعد الادب ولم يعد حب الانسان الذى يوصينا به قانون اسرائيل موجـــودا تقريبا . ولم يعد هناك اعتبار للمرأة أو احترام للشيوخ . ويواصل بيجين حديثه قائلا :

(لقد مر زمن على هذا البلد لم يكن فيه أحد يغلق باب بيته . كانت الأبواب تظل مفتوحة) ولم يحدث على الاطلاق أن دخل أحد واستولى على مالا يملكه وكان الرجال يقفون صفا ليركبوا المواصلات ولم يكن أحد يحاول اللجوء الى الغش . ومازلت أتذكر الأيام التى كنا نفخر فيها نحن اليهود بأننا مهذبون . وعند دخول احدى النساء كنا نقف لها ونعطيها مكاننا . لقد كانت المؤسسة اليهودية حيئذ جميلة وكبيرة . ومازالت فى الأمكان . اليوم ايضا التصرف طبقا لهذه الاداب . ويجب أن يبدأ كل فرد بأعطاء المثل على ذلك » .

ويعتقد مناحم بيجين أن الاسرائيلى يجب أن يستعيد صفات اليهودى التقليدى . أن يعاود الاتصال بأصول الثقافة اليهودية ، ودفع الشباب الى أن يدركوا أن اليهودية عظيمة نظرا لأنهــا احــدى المكونات الاساسية للحضارة العالمية .. ان هذا الرجل الذى يملؤه الحنين الى الأصل يتجه

فى الوقت نفسه نحو المستقبل . ويدافع بيجين عن مواقف الشجاعة والأصالة دون أن يلفظ شيئا من اليهودية الأصلية وهويردد أحيانا بكبرياء هذه العبارة لشارل بيجى « يستطيع اليهودى أن يرجع فى تاريخه من جيل الى جيل ، ويستطيع أن يرجع الى قرون مضت ، وسيجد دائما شخصا يعرف القراءة بل وليس ذلك فقط ، ولكن القراءة اليهود ، وليس قراءة كتاب ولكن قراءة « الكتاب » .

وهذا يعنى قراءة لكلمة الله ... اما الكاثوليكى والفلاح والفرنسى اذا ما رجعوا الى أصلهم فانهم يصطدمون ايا كان الجانب الذى يرجعون اليه بعد الأب او بعد الأم مباشرة ، بجبهة مربعة من الاميين » .

الحديث الجديد :

أن يكون الرجل الذى يتولى حكومة اسرائيل منذ شهر يونيو ١٩٧٧ مختلفا تمام الاختلاف عن كل هؤلاء الذين تولوها منذ ثلاثين عاما ، ذلك يعد أمرا بديهيا تؤكده طبيعة العلاقات القائمة من الآن فصاعدا ، بين اسرائيل ويهود الشتات . ولقد كان هؤلاء يشعرون أحيانا بأنهم يتحدثون لغة أخرى غير لغة الصابرا الذين كانوا يشعرون مع ذلك بأنهم متضامنون معهم تماما . والواقع ان اليهودى لم يكن يتعرف على نفسه دائما فى المرآة التى كان يقدمها له الشباب الاسرائيلى . لقد كانوا يبدون له بكل تأكيد خاليين من العقد والاوهام والاستفهامات حول النفس التى كان آباؤهم يعانون منها فى جو عدائى قائم على التميز ، ولكنهم مجردون أيضا من فضول الآباء المضطرب والمثمر . « على حد تعبير المأسوف عليه جورج فريدمان فى كتابه « هل هى نهاية الشعب اليهودى » ؟ . وكان الشباب الاسرائيلى نفسه يعرب عن نوع من الرفض ليؤكد يهوديته فى نفس الوقت الذى كان ينأى فيه نفسه عن الثقافة التقليدية وكان « الصابرا » ينظر الى يهود الشتات نظرة احتقار فى حين كان يعامل هذا الصابرا فى بعض أوساط اليهودية التقليدية فى انحاء العالم على أساس انه « أجنبى يتحدث اللغة العبرية » .

وكانت لغة الصابرا « انعكاسا لهذا التمزق .. وكانت تختلف عن اللغة التقليدية وبصفة خاصة عن أسلوب التوراة ان لغة الصابرا تستبعد كل العبارات التى ادخلها الحاخامات على لغة التداول اليومية ولا تستخدم الاوامر والعبارات الموجهة الى السماء مثل عبارة « ان شاء الله » . وتأنف من العبارات الآرامية التى كانت تستخدم فى عهد التلمود ولكنها استمرت

حتى الآن نتيجة للتيار التقليدى لليهودية وكانت لغة الصابرا تتسم بالعلمانية وعدم التقديس ولم تعد لغتهم العبرية هى لغة التقديس ولكن لغة الحديث اليومى والحوار العام .

وهذه هى الثورة الأولى التى حققها مناحم بيجين بمجرد توليه السلطة. لقد اكتشف الشعب لغة أخرى هى فى الواقع اللغة التى كان يتحدث بها اليهود طوال الوقت فى منفاهم . انها لغة التوراة والأنبياء وأساسا لغة التلمود وهى لغة مهذبة الى أقصى درجات التهذيب : تحترم الله والانسان كل الاحترام ، كما أنها لغة غنية ينساب فيها أربعة آلاف عام من التاريخ اليهودى . وتتضمن عبارات الأنبياء وأمثال الحاخامات المراجع الدينية وآيات من التوراة وقصصا خرافية ، وأمثال ، وأقوال الحكماء . وهى لغة مرموزة وتلميحية وجدلية لا يستطيع فهمها تماما الا الذين تعمقوا فى دراسة الثقافة اليهودية التقليدية . وهذه هى اللغة المكونة من علامات مقدسة التى كرمها أعضاء هيئة التحكيم لمنح جائزة نوبل فى شخص شمويل يوسف اجنون سنة ١٩٦٦ .

وهى لا تعد مجرد لغة فقط ، ولكنها رؤية للعالم وادراك للحياة يأخذ الله فيها جانبا أخاذا فى كل لحظة : ان شاء الله لا سمح الله انها أحد المشاكل التى سوف يحلها المسيح .. انها حوار مع السماء مع الاصول ، مع التاريخ . وعلى عكس اللغة العبرية ببعض أفراد الصابرا ، فهى اللغة التى كان يتحدث بها الكبار وأساتذة القانون وزارع الكروم راشى ، والطبيب معمونيد الذى يعرف العربية .

ويقول بيجين « على حد تعبير حكمائنا » .. ثم ينطق بكلمات ملتهبة أو أمثال من التوراة أو عبارات من الواقع . ولا يلجأ بيجين الى لغة سلفه الا اذا لم تسعفه اللغة العبرية التقليدية فى التعبير عن فكرته . ويضيف حينئذ وكأنه يعتذر : « ... كما يقول أبناؤنا من الصابرا اليوم . وهو لا يطيق ، فى الواقع : أن يحتمل مثل هذا العدد من العبارات الانجليزية أو الغربية المقدسة . لماذا يستخدم رابين كلمة أجنبية فى حديثه عن الحنين الذى يشعر به المجتمع الاسرائيلى تجاه سياسة هنرى كيسنجر » على حين كان بوسعه استخدام الكلمة العبرية المقابلة .

هل يعد ذلك وطنية متطرفة تصل الى حدود اللغة اليومية ؟ ربما يتعلق الأمر أساسا بموقف عاشق للغة العبرية التى لا تعانى من مثل هذه الخيانات . ويدفع صائغ الكلمة حبه للغة العبرية الى حد اختلاق العبارات

التى يحتاجها ، مضيفا اليها عند الضرورة الكلمة الاجنبية ولكن بصـورة عرضـية .

وكان بيجين يكتب على مدى سبع سنوات (من سنة ١٩٧٠ الى سنة ١٩٧٧) مقالا مرة كل أسبوعين فى صحيفة « معاريف » الواسعة الانتشار يتحدث فيه عن نظرياته السياسية وأفكاره الراهنة . ان لغته جميلة وشاملة وكلمته محددة . وهو لا يخاطب ذكاء القارىء فقط ولكن أيضا قلبه واحساسه . ويعمل على اثارة شعوره ولكن دون المساس بالواقع أو تحريف الحقيقة . كما يذكر الماضى ليستلهم منه أو ليأخذ من مصادره . ويشير بيجين فى كتابته الى المصادر التى استقى منها المراجع التاريخية والأقوال المأثورة . فمن هنا جاء هذا المثال وفى ذلك العصر عاش ذلك المؤرخ الذى اشار اليه . وكثيرا ما يبتهل الى السماء مسـتخدما عبارة من التـوراة لا تترجم على الاطلاق ، تتألف من كلمتين معناها : « اشهدى أيتها السموات » ويخاطب بيجين القارىء مباشرة على غرار أسلوب أدب التلمود . وبين العبارة الحديثة والأسلوب الذى يرجع تاريخه الى آلاف السنين ، يقع اختياره على الثـانى حتى وان كان من أصـل آرامى . يصاحبه طبقا للتقاليد ـ بعبارة « فليبارك الله ذكراه » ، واذا كان الأمر خاصا برجل عادل أو رجل صالح فان العبارة المستخدمة تكون « فليبارك الله ذكرى الملك العادل » . واذا ما استدعى الأمر الاشارة بعد ذلك مباشرة الى شخص مازال على قيد الحياة ، فان يضيف بانتظام هذه العبارة « . مع الاختلاف مع الشخص سالف الذكر ، ليطل الله فى عمره » وذلك حتى وان كان من أيد خصومه السياسيين مثل جولدا مائير أو اسحاق رابين .

الحنان وحب الغير والاهتمام والرعاية للجميع هذه هى مميزات هذه العبارات التى اتخذتها اليهودية التقليدية ـ منذ قرون طويلة ـ عقيـدة لها وقاعدة لحياتها .

واذا ما اضطر بيجين الى استخدام عبارة باللهجة اليهودية الالمانية التى لا يفهمها سوى اليهود الاشكينازيين ، فانه يعنى مباشرة بترجمتها الى اللغة العبرية ، حرصا على الا يعطى مثلما كانت عادة جولدا أو ليفى أشكول ، انطباعا بنبذ اليهود المولودين فى اسرائيل .

وقد قال الصحفى ناحوم بارنيه فى هذا الشأن : « لقد استحوذ اسلوب بليغ جديد على اسرائيل ويهود الشتات منذ أن تولى حزب ليكود السلطة . . ان بيجين بتصرفاته وبلاغته وأسلوبه ـ هو بالضبط ما اتفق على تسميته

« الشتات » . فهو يعبىء كل ما هو فى متناول يده ابتداء من رب اسرائيل الى أوشوينز ، مرورا بالانبياء ابراهيم واسحاق ويعقوب . لقد انتهى أسلوب « الصابرا » نهاية مؤكدة فى عالم السياسة .

وفى الواقع ، يستطيع المواطنون الاسرائيليون أن يكرروا ما كان يقوله جزافية خالا عن ليون يلوم فى مجلس النواب : « لأول مرة ، يتولى قيادتنا رجل ماهر من رجال التلمود » .

العقيدة :

وجه أعضاء حزب العمل اللوم الى مناحم بيجين — بعد مائة وثمانين يوما من توليه منصب رئيس الوزراء — لأنه يرغب فى قيادة الاسرائيليين « بالأحلام » (كما كان شاتوبريان ينصح بقيادة الفرنسيين) .. وجاء رد بيجين عليهم خاليا من العبارات الحادة التى كان يستخدمها وهو زعيم المعارضة أما اليوم وهو فى موقع المسئولية ، فانه يجيب بهدوء ولكن باصرار « ان امتداد فترة تولى السلطة تؤدى الى الفساد . وتتمثل الديمقراطية السليمة فى نظام الحكم الذى يجرى فيه تغيير السلطة بهدوء ومن قبل ، كنت أقول لنفسى مواسيا اننا كنا طوال هذه السنوات نتقاسم المهمة مع أحزاب الأغلبية لهم السلطة ولنا الجمال والنقاء . أما اليوم ، فيتعين على أعضاء حزب العمل وشركائهم فى حزب المابام أن يدركوا أننا قد منحناهم الاجازة التى يحتاجون اليها فليعملوا اليوم من خلال المعارضة » .

ولم يخف بيجين على الاطلاق انه لا يحب ما يطلق عليه « المزامير الاشتراكية » وأيضا التفاخر اليسارى . « فهو يجد فيه نوعا من الفساد الأخلاقى . ويثير الأسلوب الماركسى — مهما تكن المدرسة التى ينتمى ليها — ضيق هذا الرجل نادرا ما رأيناه يحتد أو يثور . حيث يعتقد أن الاشتراكية — لم تؤد سوى الى « انقسام الشعب » فى حين ان حلمه الخفى مازال « العمل دائما على توحيد القلوب » .

ويقول مناحم بيجين « ما زالت الشيوعية الاوروبية — سواء تعلق الأمر باتجاه مارشيه أو باتجاه برانجوير — تبسط نفوذها على الأجيال الجديدة وخاصة على الشباب اليهودى . ولقد تأكدت من هذا الشعور خلال لقائين مثيرين للاهتمام عقدتهما مع شبابنا فى ميلانو بايطاليا ويتعين على المرء أن يتحلى بصبر كبير فى أى مناقشة تدور بين رجل عجوز مثلى والشباب . ان الشباب هذه الأيام لا يراعون الاختيار فى كلماتهم . فلديهم القدرة التامة

على أن يقولوا الأشياء السيئة والفظة التى يعلمها لهم أساتذتهم . ولكنى أقول بأننا لا يجب أن نيأس على الاطلاق . ولا حتى من هؤلاء الشباب .

ولقد لوحت احدى الشابات ، خلال هذا الاجتماع ، بقبضة يدها تحت أنفى ، ولم يكن يبدو على مظهرها أنها من البروليتاريا الجائعة . بل على العكس كانت فى حاجة الى أن تصوم صوما عنيفا وطويلا . فالواقع أن الفرنسى مارشيه الذى لعن تقليد رفع قبضة اليد اليسرى لم يكن له تأثير عليها . قبضة العنف والانتقام . هذا هو ما توعدنا به جميعا ، بما فى ذلك أهاها وهم قطعا من البرجوازيين الطبيعيين .

وقد جرى ذلك بين جدران المدرسة اليهودية الشهيرة فى ميلانو أمام ثلاثمائة أو أربعمائة طالب كان من بينهم خمسون من الشباب متأثرين بتعاليم حزب المابام والشيوعية الأوروبية ، حيث اختلط كل شىء فى أذهانهم مما أدى الى خلق نوع من البلبلة .

ومثل هؤلاء الشباب هم الذين ينطبق عليهم ما قاله حكماؤنا بأنه لا قيمة للدراسة التى يصاحبها آداب السلوك .

أما آراؤه السياسية بالنسبة لليسار والشيوعية والاشتراكية والثورة القومية ، فقد سبق أن عرضها علينا مناحم بيجين منذ عدة سنوات مضت ، فى تل أبيب ، عندما كان مجرد زعيم للمعارضة . ويقول بيجين :

« لقد أعلن فيدل كاسترو ، منذ فترة من الوقت ، أن النظام الديمقراطى قد فشل ، ولم يعد هناك ضرورة لاجراء انتخابات ، وليس هناك ما يبرر وجود صحافة حرة . واذا كان هذا التصريح الثلاثى قد صدر فى مدريد ، لكان الفرد محقا فى تفسيره على أنه تنبؤ أو اعلان عن الفاشية الأسبانية . أما اذا كان قد صدر فى روما لقيل أنها الفاشية الايطالية الجديدة تنهض من رقدتها . ولكن من المعروف أن فيدل كاسترو ماركسى لينينى . فاذا قام بالقضاء على أساس الحرية أو عارضها فلا يحتج أحد . بل أن صحافة الدول الديمقراطية لا تنطق حرفا واحد » .

ويرجع أصل هذا التفهم الكبير الى الموقف الذى اتخذ . منذ القرن الثامن عشر ، قيل فى برلمان الثورة الفرنسية ــ وأصبح مقبولا منذ ذلك الوقت ــ أن اليمين محافظ واليسار تقدمى وبكل الغرور يعتبر الماركسيون بعد البيان الشيوعى لماركس وانجلز ــ انفسهم تقدميين علمانيين وفى بداية القرن العشرين ، وبعد الثورة البولشفية ، قال الشيوعيون أنهم هم الممثلون

الوحيدون لليسار والتقدم . أما اليوم فان الصينيين اتباع ماوهم الذين يؤيدون هذا الادعاء .

« وهكذا اعتاد الناس طوال حوالى مائة وثمانين عاما ، هذه الفكرة بأن هؤلاء الناس يمثلون اليسار والتقدم حتى وان كانوا يقضون على الديمقراطية ويحلون الأحزاب السياسية ويمنعون صدور الصحف ـ على طريقة المنظمات الفاشية .

ومازال هناك عدد كبير من الناس يعتقدون أن اليسار هو التقدم . ومع ذلك ، فان رجالا من الذين ينتمون الى اليمين ـ كانوا مصدرا لثورات ادت الى تطوير الانسانية وابتكروا انظمة حققت رفاهية وحرية الانسان فهل نذكر أسماء ؟ انهم لينكولن وديزرائيلى وهارتزل وماكس جوردان وجابوتنسكى وروزفلت وتشرشل وديجول . وعلى أية حال ألم يكن هناك حتى من قبل الثورة الفرنسية ـ رجل مثل جفرسون هم فى الواقع رجال تقدميون ؟ ومع ذلك فانهم لم يكونوا ينتمون على الاطلاق الى اليسار .

« ولكن ما الذى يحدث ، فى مقابل ذلك ، فى المعسكر الآخر ، فى اليسار؟ انه لا يتقدم ، بل على العكس يتراجع . وهو لا يسهل اكتساب حريات جديدة بل يقضى على الموجود منها . ولا يرقى بالديمقراطية بل على العكس يطأها بأقدامه . ان الشيوعية الروسية مازالت تتحدث بصوت عال وقوى باسم التقدمية ولكنها فى الواقع تحمل فى طياتها الرجعية والظلام كما تنكر القيم الانسانية » .

ومن البديهى تماما أن ماوتسى تونج قد صنع الكثير للملايين من الصينيين ولكن نظام حكمه كان شموليا .. ويتضمن كتابه الأحمر الصغير أشياء طيبة هى ثمرة تجربته الغنية التى اكتسبها خلال حرب ثورية ، ولكن من الصعب أن نجد فيه أفكارا عميقة .

« ان كلمة ثورة فيها شيء غريب يجذب الانتباه ولقد طابق اليهود أساسا بينها وبين النقد الانسانى . ومع ذلك ، هناك ثورات ترجع بالانسان الى الوراء . فماذا حدث للانسان فيما يتعلق بحقوقه الطبيعية منذ الثورة الفرنسية وحتى أيامنا ؟ فى يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ ، كان سجن الباستيل يضم سبعة مسجونين فقط . وكان أربعة منهم من بينهم المسمى بوجاد من المزورين الذين أدينوا . وقد أفرج عنهم رجال الثورة .. وتم الاستيلاء على سجن الباستيل وهدمه . لقد كان رمزا لنظام الحكم السابق الكريه وللاوامر الاستبدادية .

وفى عهد ريشيليو ، كان يتم الزج بالرجال فى السجن بناء على أوامر الملك ودون محاكمة . وكان هدف الثورة وضع حد لهذه الاعتقالات التعسفية . ولا تمحو الواقعة المتمثلة فى ان سجن الباستيل لم يكن فى تلك الفترة ، سوى سبعة من البؤساء فقط ، أى شيء من الجانب الرمزى والهام للعمل الثورى . وبعد يوم ١٤ يوليو ، الذى كان يوم عيد بالنسبة لفرنسا وللانسانية بصفة عامة ، جاء يوم ٣ نوفمبر ١٧٨٩ وهو تاريخ بدء تنفيذ اعلان حقوق الانسان والمواطن . وتنص الفقرة الرابعة من هذا الاعلان على أنه لا يمكن اتهام أو سجن أو القبض على أى شخص الا وفقا للشروط المنصوص عليها فى القانون . وقد تم اعداد البنود الستة عشر الأخرى لهذا الاعلان التاريخى بحيث تضمن للانسان – بصفته انسانا – حرياته الأساسية وقد كان ذلك تقدما حقيقيا .

« فما الذى حدث منذ مائة وثلاثة وثمانين عاما وقعت خلالها ثورات أخرى ، كبيرة فلننظر الى العالم من أقصاه الى أقصاه ، من موسكو الى هافانا ، ومن بكين الى تيرانا ، ومن صوفيا الى براج . ما الذى نراه فيه ؟ لقد عاد أكثر من نصف الانسانية الى نظام الأوامر الاستبدادية ، وذلك بالاضافة الى الديكتاتوريات العسكرية المختلفة .

« لقد حلت ملايين من أبراج الحراسة ، فوق ومن حول ملايين الرجال الذين راحوا ضحية الدكتاتوريات الجديدة ، محل أبراج سجن الباستيل » .

« ولقد وصفت الثورة الفرنسية بأنها ثورة بورجوازية ولم ينكر ماركس أو انجلز أو بلاحنوف أو لينين أنها ولدت التقدم . أما هم فقد وعدوا بالقيام بثورة بروليتارية جديدة سوف تحقق لنا تقدما أفضل خاصة القضاء على الدولة . ولكن الذى حدث بالفعل هو بالضبط عكس ما وعدوا به فقد عانت الانسانية كثيرا بسبب هذه الثورات . وعادت شعوب كثيرة الى الوضع الذى كان سائدا مثل الثورة الفرنسية . وبالطبع فان ذلك يعد عودة الى الوراء . وهو ما يمكن أن نطلق عليه لفظ الانتكاسة بكل ما تحمله الكلمة من معنى .

« هل أنا شخص وطنى ؟ لقد قال هرتزل يجب التفريق بين الوطنية الايجابية التى تنبع من حب الآخرين والوطنية السلبية التى تحركها الكراهية . وبالعبرية فان الوطنية تعنى ببساطة حب شعب ومحبة وطن . أما الوطنية فى مفهومها السلبى فانها تعنى كراهية الأجنبى واضطهاد الاقليات » ..

« واننى أقترح أن يطلقوا علينا اسم أنصار وحدة أرض اسرائيل بدلا من اسم الوطنية » .

ولا يفهم مناحم بيجين لماذا ينصرف الاشتراكيون بمثل هذه الغطاظة تجاه الذين لا ينتمون اليهم . ولماذا كان ، أساسا ، اسم استاذه الذى يحتذى به فى طريقة التفكير - زيف جابوتنسكى الا يذكر على الاطلاق تقريبا حيث كان محكوما عليه بما يشبه التحريم الدينى فى أوساط حزب العمل وكأن مجرد ذكر هذا الاسم من شأنه أن يدنس من ينطق به . ويقول مناحم بيجين فى كتابه « حياتى » : « وهكذا فان جولدا مائير تتحدث عن الاتفاق الذى أبرم فى سنة ١٩٣٤ بين بن جوريون وجابوتنسكى ولكنها لا تذكر سوى اسم رئيس حكومة اسرائيل السابق . فكيف يمكن أن نتحدث بلغة اليسار وان نعيش بأسلوب اليمين ؟ » .

ومن المسلم به أن علاقات مناحم بيجين مع حزب المابام الاشتراكى الماركسى تعد أصعب من ذى قبل . ويرجع ذلك الى أن بيجين لا يفهم تماما كيف يمكن أن يكون المرء يهوديا وماركسيا فى نفس الوقت . وهكذا فان عدم التوافق فى الطباع بين المسئولين فى ليكود والمسئولين فى المابام يعد أمرا دائما . وهو تنافر فى المبادىء والفلسفة السياسية والأهداف والقيم والأساوب . وفى الواقع ، لا يتفق ليكود والمابام الا على القليل فى النظرية السياسية .

ولقد صرح متحدث باسم حزب المابام فى أول مرة ينشأ فيها الكنيست الاسرائيلى فى الخمسينات - وكان ستالين مازال على قيد الحياة بقوله أن الاتحاد السوفييتى هو وطننا الثانى » .

ويروى بيجين قائلا : « ولقد طلبت منه حينذاك ان يتذكر أن كلمة « وطن » بالعبرية غير قابلة للجمع .. فلا يمكن أن يكون للمرء الا وطن واحد كما لا يمكن ان يكون له الا أم واحدة » .

كما أن ما يأخذه بيجين ورفاقه على فلاسفة المابام هو أمر أخطر من ذلك بكثير حيث يتعلق بالقيم التى ترسيها كل أيديولوجية : ويقول بيجين : « لقد ناضل اليهود - طوال تاريخنا - من أجل اقامة معبد لقد قدرت ايديولوجية الكيبوتز ، عن عمد وباصرار ، قيمة انشاء المعبد والمدرسة الدينية وفقا لحساب الأرباح والخسائر . ولكن ماذا عما اقترح كبديل لهما ؟ » وما هو قلب الكيبوتز ؟ لقد أقام مؤسسوه نظام تعليم غير يهودى ومدارس تخرج شبابا لا يفهمون اليهودية على الاطلاق ولا يعرفون كيف

يتصرف المرء في معبد وغير قادر على قراءة نص لاساتذة القانون ولا يعرفون شيئا عن الأدب الدينى أو الفلسفة اليهودية » .

ولقد أخذ مناحم بيجين وزملاؤه طويلا على رجال حزب العمل ارتجال سياستهم وافتقادهم للخيال في اللحظة التى يتقرر فيها لاجيال قادمة مستقبل المجتمع الاسرائيلى . واخيرا انهم اقاموا فى الادارة الوطنية نظام « الحماية » ، وجعلوه نظاما تأسيسيا ..

ويقول أحد الأصدقاء المقربين من رئيس الوزراء : « اننا نختلف عن حكومة اسحاق رابين في ترابطنا . لقد كان الفريق السابق منقسما داخليا، حيث كان كل عضو من اعضائه يفكر في الاعتداء على جاره بطعنات فى الظهر اما نحن ، فاننا نتحدث نفس اللغة . أن ناحوم جولدمان نفسه يعترف بأن هناك أخيرا « حكومة وزعيم وسياسة » . وفضلا عن ذلك ، لم يعد مجلس الوزراء ينعقد في « المطبخ » ، كما كان يحدث فى عهد جولدا مائير . وأصبح الوزراء يدرسون كل الملفات . لقد كانت حكومة اسحاق رابين توحى احيانا بأنها كالشخص الذى يتخبط بحثا عن طريقه .. أما سياسة ليكود فهى مكونة من نسيج واحد وترتكز الى أسس أيديولوجية . وهى سياسة محدودة ترتبط بأهداف جوهرية وفى عهد اسحاق رابين ، كان تسرب الأنباء عما جرى فى مجلس الوزراء أمرا يحدث بصورة مثمرة ومنتظمة : أما في عهد ليكود فليس ثمة شيء من هذا القبيل » .

وهكذا نرى أن علاقات بيجين مع الزعماء التاريخيين لحزب العمل ــ سواء تعلق الأمر بين جوريون أو جولدا مائير ــ كانت تتسم باستمرار بنوع من التنافر في الطباع . وقد وجد بيجين ، مع ذلك لغة مشتركة مع رجال أمثال موشى ديان وشيمون بيريز . ومن قبل انتخابات ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ كان بيجين زعيم المعارضة فى ذلك الوقت ــ يلتقى بالجنرال موشى ديان ليجريا معا تحليلات عميقة لكل أوجه السياسة الاسرائيلية . ولقد التقى ديان ــ غداة مناقشة (أدارها مؤلف هذا الكتاب) أجراها في باريس بمناسبة صدور كتابه ــ سرا مع مناحم بيجين الذى كان موجودا حينئذ بالعاصمة الفرنسية .

وهناك بالتاكيد ، نقاط مشتركة قليلة بين هذين الرجلين فالأول (ديان زعيم عملى لا يهتم الا بالأشياء الواقعية ، أما الآخر (بيجين فانه يخلص الى أبعد حدود الأخلاق لحزبه وآرائه الايديولوجية . ولايحترم ديان الا عددا قليلا من الناس ، ينسى صداقاته بيد انه يصر تماما على تسوية حساباته مع هؤلاء

الذين أساءوا اليه . وعلى الرغم من بلوغه الثالثة والستين من عمره ، الا أن لغته العبرية هى لغة الصابرا التى تتسم بفقرها فى الكلمات الى درجة انه يقوم — بين الحين والآخر — بسؤال أحد مستشاريه عن الكلمة العبرية المعادلة لتلك الكلمة الانجليزية . خلال الزيارة التى قام بها ديان فى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٧ للولايات المتحدة ، أبلغه همفرى النائب السابق للرئيس الأمريكى من المستشفى الذى كان يرقد فيه ، انه يرغب فى مقابلته لعدة دقائق فقط . ولم يستجب ديان لهذا الطلب على الاطلاق بحجة « ضيق الوقت » . وقد دفع له اليهود الأمريكيون حينما القى ، منذ عدة سنوات سلسلة من المحاضرات فى أمريكا — أربعة آلاف دولار كل ليلة ... وعندما انضم فى شهر يونيو سنة ١٩٧٧ : الى فريق مناحم بيجين متوليا منصب وزير الخارجية ، لم يكن قد استعاد هيبته داخل البلاد منذ اخطاء حرب كيبور والتى يعتبره قطاع كبير من الراى العام مسئولا عنها جزئيا . ويحتاج ديان اذن الى استعادة اعتباره أمام المجتمع أو بعبارة ابسط ، الى ان يعود الى العمل العام .

ولكن ما الذى يدفع مناحم بيجين الى الاستعانة برجل يتعرض لمثل هذا النقد ليتولى مثل هذا المنصب البارز ؟ واذا كان اختيار ديان لهذا المنصب يعتبر بحق عملية طيبة من جانب بيجين فان ذلك يرجع أولا — كما قيل — الى أنها تثير بعض التشويش فى المعسكر المعادى . بيد ان بيجين يعمل أساسا على استغلال هيبة الجنرال ديان الدولية فى المعركة السياسية التى تستعد لها اسرائيل . ولا يجهل بيجين ، أخيرا ، أن ديان ليس ملتزما متزمتا على الاطلاق وانه يتمتع بقدرة على التصور يمكن الاستفادة منها فى المفاوضات .

ومع ذلك ، وعلى مستوى الأفكار ، فان ديان لا يختلف كثيرا مع مناحم بيجين فيما يتعلق بالاختيارات الجوهرية فهو يرى أيضا ان تاريخ اسرائيل المعاصر يجب أن يرتبط بالقرون الماضية . وتشوب كلماته نفحة روحانية حيث يقول :

« ان مصيرنا هو أن نناضل باستمرار .. وكما حدث فى الماضى ، ويجب ان ترتكز اجابتنا اليوم على سؤال « ما الذى سوف يحدث » ؟ على التأكيد باننا سوف نصمد أمام الصعوبات اننا لا نملك حلولا حاسمة لمشكلاتنا التى أواسى نفس بالقول باننا كنا مضطرين — منذ أربعة آلاف عام فى تاريخنا الى النضال باستمرار .

« واذا ما سألتمونى عما اذا كان لدى جدول زمنى يحدد تاريخ انتهاء هذا النزاع ، فان اجابتى ستكون لا » .

« ما الذى سوف يحدث ؟ هذا هو السؤال اليهودى الحق . اننا نردده منذ اربعين قرنا ويمكن القول بأن الاهتمام بمعرفة ما الذى سوف يحدث لنا هو أمر يتعايش مع وجودنا . اننا نتطلع الى الاستقرار على اعتبار انه أمل أكثر منه حقيقة واذا كنا قد حققنا ـ من حين الى حين ـ فذلك لم يكن الا لفترة مؤقتة تكفى لاستعادة القوة لمواصلة النضال » .

ويعتقد ديان ـ مثل بيجين ـ فى أعماق نفسه أن العرب لن يقبلوا على الاطلاق وجود دولة يهودية . « فهل هو قدر محتوم ؟ يقول مناحم بيجين : « أن فكرة القدر غريبة عن اليهودية . ويمكن تجنب الحرب ولكن لا يمكن تجنب السلام . ولا توافق الدول العربية اليوم على أى خطة اسرائيلية وفى الحقيقة : سيبدأ أعداؤنا فى التفكير جديا فى السلام عندما سيتوصلون الى خلاصة انهم لا يستطيعون القضاء على دولة اليهود » .

« اننا شعب صغير ، ولقد عانينا الكثير قبل أن نصل الى هنا ... ولن تركع أمام الطغاه لاننا نعرف أننا أبرياء . ان هذا البلد الصغير ملك لنا . نحن لم تلحق الضرر على الاطلاق بعربى واحد كما اننا لم نسمح الى ذلك على الاطلاق » .

« اننى أريد أن أقول اليوم ما كنت أقوله منذ سنوات . اذا كنا نستطيع أن نتذكر فسوف ننتصر على كل أعدائنا . انهم لن ينجحوا أبدا . وحتى اذا توصلوا الى السيطرة علينا فسوف نطيح بهم . واذا لم يكن لدينا سلاح ، فسوف نصنعه . وسوف تساندنا روح الحرية » .

بيجين ، هل هو ارهابى ؟ ان الكلمة تدفعه بالأخرى ، الى الابتسام . لقد افترت عليه بعض الصحف الشيوعية ونسبت اليه أحيانا تصريحات ملفقة . ويقول بيجين : « مثل ذلك التصريح الذى نسبته الى ببساطة الصحيفة الشيوعية « صديقنا » التى تصدر فى أوروجواى (باللغة العبرية) : « سوف نجبر العرب على الخضوع لنا تماما » . ان الكذب له أجنحة . ومرة أخرى فى سنة ١٩٧٥ سألنى صحفى فى التليفزيون الانجليزى ، بغتة وبطريقة مباشرة عما اذا كنت قد صرحت حقيقة « بأننا سوف نقيم حضارتنا الجديدة على اطلاق حضارة العرب » . لقد نسبت الى صحيفة « روسيا السوفيتية » هذا التصريح فى مقال بعنوان « النازية ، ايديولوجية الصهيونية » . كيف يصدق هذا الصحفى الانجليزى اننى يمكن أن أدلى بمثل تلك الكلمات ؟ .

ويعتقد بيجين ـ مثل ديان ـ اعتقادا راسخا أن بعض الدول العربية مازالت ترغب فى القضاء على اسرائيل ، وربما تلجأ الى تحقيق ذلك على مراحل . ولذلك لا يوافق بيجين على الاطلاق على التحدث عن منظمة التحرير الفلسطينية التى يسميها « مركز تجميع القتلة » .

ويقول بجين : « كان يتعين علينا أن نسمى هذه المنظمة بالاسم الوحيد الجدير بها وهو منظمة النازيين العرب » ويضيف بيجين متذكرا العملية الناجحة التى قام بها الكوماندوز الاسرائيليون فى مطار عنتيبى فى اوغندا فى شهر يوليو سنة ١٩٧٦ « .. لقد أقسمنا ، نحن رجال هذا الجيل : قسم الولاء لذكرى أمهاتنا اللاتى ذبحن وآبائنا الذين قتلوا وأبنائنا الذين ماتوا خنقا باننا لن نضحى مطلقا بالشرف والدم اليهودى » .

ولا يرغب شعب آخر فى السلام بقدر ما نرغب نحن . وليس فى ذلك ما يثير الدهشة فلم يفقد اى شعب آخر ثلث ابنائه مثلنا . ولم يحدث ان اى شعب آخر فى كل انحاء العالم لم يحصل ـ طوال النصف الأخير من هذا القرن على عام سلام واحدة . ويجب ان نتذكر انه حينما يقول أعداؤنا انهم لن يقبلوا توقيع اتفاق معنا الا اذا انسحبنا الى ما وراء حدود ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ وبعد حل مشكلة الشعب الفلسطينى ـ فان ذلك لا يعنى سوى الرغبة فى القضاء على دولة اليهود » .

ولم تكن حرب الأيام الستة فى سنة ١٩٦٧ ، بالنسبة لمناحم بيجين ، سوى « حرب دفاعية » . وعندما يتحدث عنا ، فهو لا يتحدث كرجل سياسة ولكن كمؤرخ ان لم يكن كمتصرف ومن عادة بيجين أن يستخدم الكلمات الرنانة فى حديثه . وينبعث ذلك من أعماق طفولته ومن أعماق التاريخ . ولقد تعلمه من أستاذه ومرشده زييف جابوتنسكى . ولا يتردد بيجين ـ مثل اى حاخام ـ فى مراجعة القرون الماضية من تاريخ شعبه . ويقول بيجين .

لقد كنا محاطين ـ فى شهر مايو سنة ١٩٦٧ ـ بدول قوية . وكان ثلثمائة الف جندى محترف مدربين على « الحرب المقدسة » يرغبون فى القضاء على اليهود . وكنا نسمع النداءات التى تدعو الى ابادتنا . لقد كانوا يقولون فى دمشق وعمان والقاهرة وبيروت . لقد حانت ساعة القضاء على دولة اسرائيل .

« وفى مجلس الوزراء ، كنا واحدا وعشرين يهوديا مجتمعين ، اجتماعا سريا . ولقد كانت القائمة فى ذلك اليوم ـ اكثر قاعات العالم « انغلاقا » ما الذى يجب ان نفعله لانقاذ شعبنا من « شوا » جديدة (وهى الكلمة

العبرية التى أطلقت على الكارثة التى تعرض لها الشعب اليهودى أثناء الحرب العالمية الثانية) . وفى هذا اليوم ، قدم أحد كبار ضباط الجيش تقريرا سريعا ينص على أن الحرب التى سوف تفرض علينا قد تكلفنا مائة ألف رجل . وكانت سلطات الجيش الرسمية تتحدث ، من جانبها : عن ثلاثين الف قتيل على الأقل وقد أسفرت المعارك فى النهاية عن مقتل ٧٩١ رجلا من أبنائنا وجرح الفين آخرين . وقد كان ذلك بالنسبة لنا تضحية غالية . ولكن مالذى كان يمكن أن يحدث لو أن الذين قتلوا كانوا مائة الف أو حتى ثلاثين الف .

لقد قلنا لأنفسنا فى مجلس الوزراء بأننا لا نعرف كيف سيكون رد فعل الرأى العام الدولى ، ولكننا كنا ندرك جميعا ـ فى هذه القاعدة ـ اننا اذا أصدرنا الأمر بالهجوم فالأمر يتعلق هنا بحق الدفاع عن النفس ، فهى أنبل معنى من معانى تاريخ الانسانية . ولم يكن الامر يتعلق فقط بانقاذ الدولة ولكن بتجنب تعريض الشعب اليهودى لكارثة ثانية .

« وهناك قاعدة ذهبية فى القانون الدولى . اذا ما حاربت أمة دفاعا عن نفسها وقضت على المعتدى بعد حرب ، فان النتيجة تكون ـ فى اتفاقيات السلام ـ فى اجراء تعديلات فى الأراضى . واننى اقول ذلك بوضوح دون تعقيد .

« ولقد حدث ذلك ، بعد الحرب العالمية الأولى ، عند ابرام اتفاقيات فرساى وتريانون وسان جرمان ولوزان للسلام .. كما حدث ذلك أيضا بعد الحرب العالمية الثانية بعد توقيع ميثاق الأمم المتحدة فى باريس سنة ١٩٤٧ ، بعد عقد اتفاقية السلام مع فنلندا وايطاليا ، والمجر ورومانيا وبلغاريا . وكذلك بعد اتفاقية سنة ١٩٥١ التى أبرمت بين أمريكا واليابان واتفاقية سنة ١٩٥٦ بين الاتحاد السوفيتى واليابان .

« اننا نقول ببساطة أن هذه القواعد سارية المفعول بالنسبة لكل الشعوب وبالتالى فانها سارية المفعول بالنسبة للشعب اليهودى أيضا ..

« لقد كانت حرب الأيام الستة فى الحقيقة حدثا « ثوريا » سواء بالنسبة ليهود العرب أو بالنسبة ليهود الشرق . ويأتى آلاف من اليهود ـ وسوف يستمرون فى المجىء من بلاد الهجـرة اليهودية المعتادة ليلحقوا بنا . وقد جرت العادة على أن يغادر الناس البلاد التى يعيشون فيها ـ بل واحيانا أوطانهم ـ ليحسنوا مستوى معيشتهم . واليوم ، يأتى آلاف اليهود الى

هنا وهم يدركون أن مستوى معيشتهم سوف ينخفض . وفى الحقيقة فان الامر لا يتعلق بالهجرة ولكن بالعودة الى الوطن » .

ويعتقد مناحم بيجين ان حرب كيبور فى شهر اكتوبر سنة ١٩٧٣ ــ لم تكن ممكنة « لولا كل الاخطاء التى ارتكبت عندنا » وفى الواقع ، كان العرب يعرفون اننا لم نكن مستعدين . ولقد رصدوا ما كان يحدث عندنا ، وقبل يومين من الهجوم ، قال السادات : الآن ، فات الاوان لكى يستعد الاسرائيليون .

واليوم ، يعرف كل فرد الخطأ الفاحش الذى ارتكبناه فى ذلك الوقت . اننا لم نتحرك وكانت قواتنا بعيدة عن الجبهة . ولقد وجد ٤٣٦ من شبابنا انفسهم على الضفة الغربية لقناة السويس فى مواجهة سبع فرق مصرية . وكان العدو يعرف على وجه الدقة توازن القوى على هذه الجهبة .

« وفى الجولان فى الشمال ، كان هناك ١٧٠ من دباباتنا فى مواجهة ١٤٠٠ دبابة سوفيتية ــ سورية ، وهنا ايضا كان العدو يعرف بالتحديد نسبة القوات فى الميدان وهكذا اندلعت حرب كيبور هذه . وبعد ، فاننى اكرر انه ليست هناك حرب لا يمكن تجنبها ولا اقبل الحجة التى تقول بأن السياسة التى كنا نتبعها هى التى ادت الى هذه الحرب .

« ويمكن أن نثبت اليوم انه كان يمكن تجنب الحرب العالمية الثانية اذا لم يكن قد تم ابرام اتفاقية ميونخ سنة ١٩٣٨ واتفاقية موسكو فى شهر اغسطس سنة ١٩٣٩ . وقد كان من الممكن ــ بدون هذين الخطأين التاريخيين ــ تغيير وضع الانسانية واننى أقول بكل وضوح أن العدو هاجمنا بسبب ارتكابنا لخطأ جسيم قبل الحرب فى سنة ١٩٧٣ . بيد أن ذلك لا يتعلق على الاطلاق بسياستنا التى كانت سليمة فلم يكن يتعين اجراء اى تغيير فى الموقف دون ابرام اتفاقية سلام » .

ولم يكن مناحم بيجين يميل ، لفترة طويلة الى استراتيجية الدكتور هنرى كيسنجر أو الأهداف التى يسعى لتحقيقها ، وفى حين كانت جولدا مائير ترى ان هنرى لم يكن على الاطلاق « عدو اسرائيل » (ولكن لماذا يجب ان نتوقع منه أن يساعدنا فقط لمجرد انه يهودى ؟) ، فان بيجين يوضح الفارق بصورة اكبر : « اننا نعرف عددا كبيرا من اليهود الذين بذلوا جهودا جبارة ليثبتوا للجميع انهم على الرغم من انهم يهود ــ يتصرفون معنا « بموضوعية » وكانت النتيجة ، بالنسبة لنا ، مريرة » .

والنقطة المشتركة الوحيدة مع وزير الخارجية الأمريكية السابق (بخلاف الذكاء الجدلى) هى أن بيجين يحب كثيرا ـ مثل كيسنجر « القصص الجميلة » وخاصة اذا كانت معطرة بروح الفكاهة اليهودية واذا كانت سياسية .

وهناك قصتان يفضلهما بيجين لأنهما تعودان به الى فترة من حياته لم يكن النضال يفتقر فيها الى الرومانسية .

« لقد كان ذلك فى عهد روسيا الستالينية . وكانت أكبر صحيفتين روسيتين هما : « البرافدا » (الحقيقة) وهى لسان حال الحزب ، والأزفستيا (الأخبار) لسان حال الحكومة وكان المواطنون فى كل أنحاء البلاد يتغامزون ويقولون :

ان صفحات « البرافدا » لا تتضمن أى أخبار ، كما أن صفحات « الازفستيا » لا تقول الحقيقة .

وتتعلق القصة الثانية أيضا بالعالم السوفيتى :

« ما الذى سوف يحدث بعد تأسيس الشيوعية » ؟

ـ سيكون لكل مواطن سوفيتى طائرته الخاصة .

ـ وما الذى ستفعله بطائرتك ، يا ايفان ايفانوفيتش .

ـ يا له من سؤال يا بيوتر بيوتروفيتش ! ساقبع فى منزلى فى موسكو وبمجرد أن أسمع فى الاذاعة أنهم يوزعون الخبز فى كييف ، سوف استقل طائرتى مباشرة اليها لاكون أول من يقف فى الطابور » .

العودة الى اليهودية

((يهود بدون الله ، هل يعقـــل ذلك ؟
بل لا يمكن أن نتصور يهوديا بدون اله ؟)) .

دوستويفسكي

المجتمع العلمانى :

لم يقتصر التغيير على الناحية السياسية . ومن المؤكد أن « ثورة ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ الثقافية » ليس لها اية علاقة بالثورة الثقافية التى حدثت فى الصين منذ عدة سنوات بيد أنها لا تقل عنها واقعية فقد قرر رجال من كل الفئات العـــودة الى التقاليد القديمة ـ التى تخلوا عنها فى وقت من الأوقات ـ والانطلاق فى التنقيب عن جذورها .

أن « التوبة » أو العودة « بدعة اختلقتها اليهودية التى ترى أنه ليس هناك أى شىء قط قد ضاع نهائيا مادام هناك تائبون هم فى الحقيقة افضل من أكثر الناس عدلا » .

وكانت هذه الظاهرة الدينية قد بدات ـ فى الحقيقة ـ غداة حــرب الايام الستة أمام حائط المبكى المجرد حيث عثرت طائفة من الجنود الملحدين الذين تملكهم الحزن الى حد الانخراط فى البكاء على جزء من ذكرى شعبها .

ومنذ ذلك التاريخ ، كانت تؤوب ، فى كل عام ، ضمائر قلقة وارواح متعطشـــة المتطلعـــة الى حظيرة التقاليد ، سعيا وراء « شــعلة القانون » ومصدر الحياة .

ومنذ شهر مايو سنة ١٩٧٧ ، اكتسبت هذه الظاهرة ، بفضل التغيير الذى طرأ على المسرح السياسى ، شيئا من الأهمية . ومن المؤكد أن ذلك لا يمثل بعد حركة مد ولا موجة منبعثة من الأعماق .

ولكن هناك بالفعل آلاف من الشباب ـ ومن هم دون الشباب ـ من اصل مختلف يمارسون « العودة الى التقاليد » . وفى هذا الشأن يقول يوسف زافين مؤلف دائرة المعارف التلمودية . « ستكتسح حركة العودة هذه ، المجتمع العلمانى » .

أى مجتمع علمانى ؟ فى الواقـــع ، كان الاباء الذين أسسوا الدولة من اتباع مذهب الملحدين والعقلانيين والماركسيين وقبل كل شىء المعادين ليهود الشتات ولم يكن من الواجب أن تكون الحياة فى الدولة التى كانوا يحلمون بتأسيسها ـ مشابهة على الاطلاق لتلك الحياة التى كان يعيشها اباؤهم

واجدادهم فى الاحياء اليهودية فى أوروبا . وهكذا اهملوا الدين من تاريخهم كما قدرت التقاليد ــ كل التقاليد ــ وفقا لحساب الارباح والخسائر .

وكانت التوراة تدرس باعتبارها أحد كتب الأساطير . وكان أبطالها يجردون تماما من كرامتهم وقدسيتهم ويهوديتهم . وكانوا يسعون الى تجاهل الفى عام من الثقافة والتعليم اليهودى . وما كان الشباب والبالغون يجهلون ماهية الأدب التلمودى وأنه اذا كان النبى أموس قد أفلت من هذا التدنيس العام فما ذاك الا لأنه كان « يمكن استعادته » .

وكان يمكن تقديمه ببساطة على اعتبار انهأحد واضعى نظرية الاشتراكية اى كأحد أجداد تونتون ماركسى .

وباختصار ، كان الامر يتعلق بالنسبة لهؤلاء الاباء المؤسسين ، بخلق انسان آخر كان على نقيض الانسان اليهودى التقليدى : نصفه من اسبارطة والنصف الآخر من القدس . وهذا هو السبب الذى من أجله انتهجت ــ فى الخمسينات وغداة انشاء دولة اسرائيل ــ سياسة منهجية للتخلص من الصبغة اليهودية وعلى سبيل المثال : كان الشباب فى سن المراهقة ــ الذين ينتمون الى عائلات تقليدية ، من المغرب أو من اية دولة أخرى يرسلون رأسا الى مراكز التدريب فى « هاشومير هاتزائير » حيث كان يتم تجريدهم من التقاليد وثقافتهم وذاكرتهم .

واستبدل الدين بأفيون آخر هو تقديس الدولة .

وهكذا يكون فى البلاد معسكران متميزان ومتوازيان ، يجهل كل منهما الآخر ومتعاديان أشد العداء وليس بينهما اية وسيلة اتصال ، وهما : المعسكر الدينى والمعسكر العلمانى .

وكان أنصار المعسكر الدينى يعتبرون العلمانيين « أشخاصا غير يهود يتحدثون العبرية » ، نوعا من الاستعمار الغربى الأجنبى لمصادر ثقافة وتاريخ الشعب .

ولم يكن المعسكر العلمانى ــ الذى كان عدد أعضائه أكبر كثيرا من أعضاء المعسكر الدينى ــ يحتقر كثيرا اليهودى الموالى للمعسكر الدينى الذى كانوا يعتبرونه متخلفا ومن يهود الشتات ورجميا وذا افق محدود . ويقول ادين شتاينز السن فى هذا الشأن : « وهكذا كان المرء يحتاج لكى يكون يهوديا متدينا فى اسرائيل الى شجاعة فائقة يتعين عليه الانصاف بها لكى يكون صديقا حميما للمحتالين وتجار المخدرات » .

ولقد بلغ الأمر الى حد أن المعسكر الدينى كان يوحى أحيانا وكأنه « مخزن وطنى » أو متحف يتم التحفظ فيه ـ على سبيل الذكرى التاريخية ـ على نوع من الحياة ، فى سبيله أن أجلا أو عاجلا ، الى الاختفاء من الخريطة الاجتماعية للبلاد .

فهل نجح هذا الأسلوب فى التدريب ؟ لا يبدو ذلك على الاطلاق لقد ظهر ثانية ـ من خلال شهادة الشباب ـ فكرة قديمة تقول : « لقد نجح آباؤنا فى القضاء على التقاليد ولكنهم فشلوا فى احلال أى شىء أخر محلها سواء أكانت قيما أو ثقافة أو ايمانا » .

ويقول مناضل اسرائيلى شاب : « أن حياتنا الدنيوية تبدو لنا قاتمة فارغة » . ويقول شاب من شباب الكيبوتز « فى الوضع الراهن ، ليس هناك مخرج آخر سوى العودة بصورة جادة الى التقاليد . ولقد بلغنا الآن مرحلة يجرى فيها نوع من العودة الى الحياة اليهودية » .

ويقول وزير التعليم الجديد من جانبه « يتعين اضفاء الصبغة اليهودية على الاسرائيليين . ويجب الا يشعر تلاميذنا بأدنى شك والا يكون لديهم أى تساؤل يتعلق بالهوية أو الذات أو الارتباط أو الحق أو الواجب أو الهدف . كما يجب أن تكون علاقاتهم بتراث اسرائيل وبالأرض والشعب مقدسة » .

ويرى زيبولون هامر ـ الذى يمثل الجيل الجديد للحزب الدينى داخل حكومة بيجين ـ أنه يتعين على الاسرائيليين الاستمرار فى العودة الى الأصول الى القيم اليهودية ، والأخلاق اليهودية ، والأعمال الطيبة وحب شعبنا ووطننا .

ويتساءل طالب اسرائيلى قائلا : « فى كل ما نفعله فى هذا البلد ، أين هو الشىء الذى يعبر عن هويتنا وذاتيتنا اليهودية ، ان ثقافتنا لا يجب أن تكون مجرد تقليد لأساليب الآخرين » .

لقد تغير مظهر المجتمع الاسرائيلى بعنف فيما بين حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ ـ وحرب كيبور سنة ١٩٧٣ . لقد اختفى الجو الأسرى الذى كان سائدا فيما مضى ، واختفى معه القليل الذى كان باقيا من التركة اليهودية .

وأصبح الشباب يهزأ بوقاحة بأقدس مبادىء الصهيونية . وأصبحت كلمة الصهيونية نفسها محل سخرية طبقا لأصول دوح الدعاية اليهودية

الأزلية . وهكذا يصف أبا ايبان وزير الخارجية الاسرائيلية السابق تلك الحقبة من تاريخ اسرائيل فيقول : « يعتقد الصابرا أن القوة التى تتسم بها سياسة ما ليست فى التقيد بمذهب أو آخر ولكن فى أن تسفر عن نتائج ملموسة . وكانت النظرة الخيالية بأنهم « منار الأمم » تبدو ادعاء بقدر ما هى وهمية بالنسبة للجيل الشاب الذى كان يعتقد انه تحمل نصيبه من العبء بما فيه الكفاية دون الاهتمام بعبء الآخرين .. بل وفى الكيبوتزات نفسها بدأت البساطة التى كانت سمة الازمنة الغابرة تضيع .. وكان مصطلح « حبيل اسبرسو » يصف تماما هذا الشباب المستعد لتقديم كافة التضحيات اذا ما استدعى الأمر ، ولكنه يصر فيما عدا ذلك ، على أن يعيش حياته بأقصى قدر ممكن من الرفاهية .

هل نسير نحو النيوقراطية :

هل يعد مناحم بيجين مسئولا — قليلا أو كثيرا — عن الظاهرة الجديدة الخاصة بالعودة الى الأصول ؟ هل هو الذى دعا اليها أم انه أيدها ربما يكون قد هدى — أساسا — شعبا الى أماله الخاصة ؟ وقد تأثر شعب الكلمة الالهية بهذا الرجل السياسى الذى يتحدث وكأنه صفحة من التوراة بذلك اليهودى العنيد الذى بكى فى أحد معابد بوخارست .. والذى ربما يعطى انطباعا سيئا لفئة من الشعب .

أن الشباب الاسرائيلى — الذى يعانى من عدم الرضاء ويتصف بالفضول ويلازمه القلق يشعر لدى سماعه حديث بيجين ، أن تاريخ شعبه يبعث من جديد . انه يرى الحياة تعود مرة أخرى الى هؤلاء اليهود الذين كان لديهم تصميم وليسوا مجرد أصحاب رسالة وكان أمامهم مصير وليس مجرد مستقبل وسبيل للحياة وليس مجرد عقيدة » .

ومن هم هؤلاء اليهود الذين يعودون مرة أخرى الى التقاليد ؟ انهم ينتمون الى كل الطبقات الاجتماعية وكل الاتجاهات السياسية والفلسفية . ويقول ذلك السفير السابق الذى كان ماركسيا سابقا — عضو كيبوتز بيت اودين فى الجليل وصديق بن جوريون الحميم : « لقد تخليت عن « رأس المال » وأبدلته بالتلمود وبتفسيراته . لقد وجدت جزءا صغيرا من حقيقتى » .

ويتساءل أودى زوهار — نجم التليفزيون الاسرائيلى الذى يتمتع بشعبية كبرى حيث يعتبرونه جين يان الاسرائيلى — متسائلا : « هل يملك

مجتمعا – اذا لم يستخدم كلمات مثل الله أو الأخلاق – بديلا آخر سوى العودة الى أصـــوله » ؟ .

ويتساءل أبا ايبان أيضا وهو يتحدث عن تلك الغريزة المتأصلة من آلاف السنين . « فلنصلح أنفســـنا من جديد ، أن نكون فخورين بأصـــولنا اليهودية ، وأن نثبت فى اذهان أطفالنا المعنى الذى تحمله تركتهم ، وأن ننقذ مجتمعنا من مخاطر الانحلال » .

ويقول الشاعر أبا توفنر « انها ظاهرة ايجابية يجب تشجيعها » . فى حين يعتقد الكاتب حاييم جورى « باننا نعيش زمن الصابرا القلق والحائر »

كيف نفسر اذن هـــذا المطلب الدينى وذلك البحث عن « الشـــعلة الجديدة » ؟ يقول جان لوك ألوش : « أن المطلوب هو البحث عن هوية ، واسترداد الانا الثقافية والروحية المدمرة ، والبحث عن الجذور فى الذاكرة وكأن الجذور الجديدة المتأصلة فى الأرض العبرية لم تعد تكفى شعبا محكوما عليه بالاضطراب ، وأشخاصا « تائهين » ، معرضين لغارات عالم شرير ولعدو جاثم يعرض باستمرار وجودهم للخطر . وهكذا يلتقى البحث الفردى مع القلق الاجتماعى ويتغذى عليه .. ولا تقتصر حركة العودة على مجرد أنها لقاء مع رب اسرائيل ولكنهـــا تدخل فى اطار صعود جـديد يائس للأزمان الغابرة ، ولأصول التقـــاء الصوفية فى التاريخ . وتريد اسرائيل استعادة روح عن طريق قفزة مهولة الى الخلف تمحو كل محاولات « التطبيع » التى بذلتها الصهيونية السياسية .. وطالما أن مصادفات التاريخ المؤلم لم ترد اسرائيل الى الوضع اليهودى ، وأن القانون الدولى لم يعد سائدا فيحسن أن نسترد فى غمرة الحركة نفســها شخصيتنا الســـابقة وشرعيتنا التى تمنحهما لنا التوراة وحدها .

ويشجع أسلوب الحديث الجديد للسلطة التى تولت حكم البلاد منذ شهر مايو سنة ١٩٧٧ بوضوح ظهور وتطور « حركة العودة » . الأمر الذى يعطى المعسكر الدينى الديناميكية والقوة فى مواجهة القطاع العلمانى . فلم يعد يعانى من العقد أو الالتزام المتحفظ . وأصبح من الآن فصـــاعدا ، يتحدث بصوت عال ويطالب بالمزيد ، ولم يعد موضوعا للسخرية التى كانت تدور فى السهرات البرجوازية وهو الذى يقوم ، حاليـــا ، بمهاجمة المجتمع المعادى الذى يتهمه بالارتواء من « احواض مصدعة » . ولم تعد اليهودية الدينية فى اسرائيل – مع اختلاط كل طوائفها المختلفة – فى ظل حكم بيجين

تعانى مما كانت عليه حتى الآن من انطواء وتركيز على اختلافهـا . لقد استعادت حق ابداء رأيها . ولم تعد تكتفى بالتعبير عن وجـودها ولكنها تعلن على الملأ قضيتها ضد المعسكر المعادى : ما الذى فعلتموه بشبابنا . ؟

لقد أصبح المعسكر الدينى اليوم عدوانيا بقدر ما كان بالأمس ورعا ومنطويا وغير واثق من نفسه . وهو يراقب القواعد المحطمة للقانون العلمانى القديم ويطالب الجميع بتسجيل ذلك ، رسـميا . كما لا يعترف فى نفس الوقت بكل الكتاب العلمانيين الذين يتحدثون باسم المجتمع الاسرائيلى الذين كانوا ـ حتى عهد قريب ـ يتباهون علنا بقولهم : أننـا أولا اسرائيليون ثم فقط يهود . ذلك القول الذى أصبح مرفوضا من الآن فصاعدا . وأصبح الاسرائيليون يقولون اليوم أكثر فأكثر : اننا يهود قبل أن نكون اسرائيليين .

وينوهون من الآن فصاعدا الى أن الدولة اليهودية هى « ثمرة الرؤية العريقة » وواقع التاريخ اليهودى . « واذا كانت شهادة ميـلاد الدولة اليهودية قد صيغت اليوم فليس هنـاك أدنى شك فى أنها كانت تتضمن الاشادة قبل أى شىء برب اسرائيل والأنبيـاء وكل معلمى اليهودية الذين حافظوا على بقاء الشعلة . ومن يدرى فربما يأتى اليوم الذى تعـاد فيه صـياغة شـهادة الميـلاد العلمانية ـ التى كتبت سنة ١٩٤٨ وفقـا للروح الجـديدة .

ويزهو المعسكر الدينى بأنه لم يعد ، الآن ، مضطرا للعمل بطريقة شبه سرية وأن طريقتـه الأكاديميـة ـ التى كانت تستقبل حتى الآن الهيبيز الأمريكين الذين يبحثون عما يسمونه كاتمانوو الجديدة ، أو أرواحا ضالة ـ يتردد عليها اليوم جامعيون من ذوى الشهادات وشباب برجوازيين .

ويمكن للسلطة من جانبها ، أن تفيد فى كشـف حسـابها الخاص بما حققته من نجاح والتقارب الذى حـدث فى نفس الوقت ، بين اسرائيل ومختلف عناصر يهود الشتات فى مكان يوجدون فيه . ولم يكن القاسـم المشترك بين فرعى الشعب اليهـودى ـ الفرع الـذى تتكون منـه دولة اسرائيل (٢٣٪) والفرع الذى يعيش فيه بقية أنحاء العالم ـ فى يوم من الأيام بمثل هذه القوة التى هو عليها فى ظل حكومة مناحم بيجين . وعلى أية حال ، أو ليس للنهضة الدينية التى نراها فى اسرائيل امتداد ، وبعض الاصداء فى كل من باريس ولندن ونيويورك وجوهانسبرج ؟

أن اليهودية ليست دين الدولة فى اسرائيل (بعكس الاسلام الذى هو الدين الرسمى فى أغلب الدول العربية) ولكن هل أصبحت بالفعل دين الدولة ؟ ولن يؤدى ذلك بالمتطرفين من أتباع التطبيق المتشدد فى ظل ظروف مواتية لهم مثل هذا القدر الى زيادة حدة الجانب الاكليروس لاسرائيل ؟

وان يؤدى ذلك الى تشجيع المتطرفين فى تشددهم على الاعداد ـ داخل البلاد ـ لبعث مدينة ترتكز فقط على التقاليد ، دون انفتاح حقيقى على عالم القرن العشرين واولا ، ما الذى سوف يقترحونه على المجتمع الحديث فى اسرائيل ؟ وما هى خطتهم الاجتماعية وفلسفتهم ؟ وعقيدتهم ؟ وما هى الحلول التى يقترحونها لحل كافة المشكلات المتعلقة التى تثيرها المدينة فى وجه اليهودى فى نهاية هذا القرن ؟

هذه هى فى الحقيقة ، الأسئلة التى يمكن ان تثار أمام استعادة المجتمع الدينى فى اسرائيل لقوته . فاذا كان من الممكن أن تساعد هذه النهضة يهودية الحاخامات على الخروج من جزيراتها ومقارها ، ووضع حد لاضمحلال الفكر الدينى ، وايجاد التوازن الضرورى بين القيم المبدئية للشعب اليهودى والأعمال التى تفرضها الحياة وحقيقة العالم ، فمن المؤكد أنها سوف تكون نهضة مفيدة . ولكن هل سيقتصر استخدامها على ذلك فقط ؟ أليس هناك احتمال فى أن تقوم صلات خاصة ومفضلة بين الدين والسياسة ؟ ولن يؤدى كثرة الدفاع المطلق عن قلعة « الهالاكها » (الشريعة اليهودية) الى منح الدين سلطة فى مجال السياسى ؟

ان خطورة دين يتسم بالنضال تكمن فى أنه قد يصبح فى يوم من الأيام دينا مسيطرا وليس دينا متسامحا . فهل اسرائيل « العودة » بمنأى عن هذا الخطر أو أن ذلك ليس سوى العلامة المبشرة « بصهيونية الله » وبالتيوقراطية حكومة الهية يشرف عليها رجال الدين) .

لقد كتب روبين ماس ـ الذى كان يطرح على نفسه هذا السؤال بالفعل ـ فى سنة ١٩٤٦ فى كتاب « الدولة اليهودية » ـ يقول اذا كان الايمان يحافظ على وحدتنا ، فأن العلم يحررنا . وبالتالى فاننا لن نقبل أن يعمل رجال ديننا على تنمية الذبذبة النيوقراطية . وسوف نتمكن من ابقائهم فى معابدهم كما تبقى جنودنا المحترفين فى ثكناتهم .

البيجينية :

ما هى البيجينية ؟

أنها العمل الذى يقوم به رجل فى محاولة لدفع التاريخ والسيطرة عليه أنها حياة مكونة من الجرأة والخفة وأيضا من الثقة فى السير على الطريق السليم .

لقد اختار بيجين طريقة وهو مازال بعد شابا يافعا : أن نضاله يستند فى نفس الوقت على عقيدته وفعله والكتاب ، ولكن أيضا ، عند الحاجة ، على السيف . أن الموت والألم لا يثيران خوف الرجل الذى يؤمن ايمانا مطلقا بفكرته وعقيدته .

لقد كون بيجين لنفسه ــ طوال حياته ــ فكرة معينة عن بلاده وشعبه وأرضه . وقد كان من الممكن أن يغير هذه الفكرة وعندئذ كان الطريق الى السلطة سيفتح أمامه على مصراعيه .

ولكنه فضل أن يظل على مبدئه طوال ٢٦ عاما .

أن بيجين لديه أحساس بالمصير وباغراء التاريخ . فهو يتطلع الى أن يسطر اسمه فى قائمة مؤسسى اسرائيل الكبار ــ أن لم يكن فى قائمة انبيائها وهو يريد ــ أكثر من أى شخص آخر ــ اضفاء معنى جديد على نضاله الماضى ..

وكان اندريه مالرو يقول : « ان المصير هو خطوة تتسلل من باب نصف مفتوح » . وهذا ما فعله مناحم بيجين فى يوم ١٧ مايو سنة ١٩٧٧ ولم يعد منذ ذلك التاريخ ، مجرد زعيم ليكود الذى رأسه وكذلك المجتمع السياسى الاسرائيلى . أنها فى نفس الوقت ، حياة نضال أصبحت موثقة ومؤكدة . أنها بالنسبة لبيجين الانسان ، ذكرى جديدة لوجوده ، ومصير معكوس .

بيد أن هناك ، فى الواقع شيئا مؤلما الى حد ما فى حياة هذا الرجل الذى أصيب بأزمة قلبية فى نفس اليوم الذى توج فيه نشاطه السياسى وتحقق فيه الهدف من نضاله : أى تولى السلطة . ويدرك مناحم بيجين ، منذ ذلك الحين أنه دعى لتولى الأمور فى وقت متأخرا قليلا . ولذلك فأنه يعجل فى القيام بمهامه . وهو يريد تكريس الوقت القليل الذى يتبقى له فى استكشاف سبل السلام مع جيرانه العرب وأيضا تشكيل اسرائيل الغد

بقدر المستطاع واعادة هذا الشعب صعب المراس (فليس من السهل حكم اليهود) الى حقائق الأمس وأصالة تاريخه . وعلى الرغم من أن الصهيونية كانت باستمرار على حـد قول انى تريجر ــ « فى العام ، وفى مواجهة العالم ومع العالم » ، الا انها يجب أن تكون ــ على حد قول بيجين مع اليهودية .

والبيجينية عقيدة أيضا

أن وصول زعيم ليكود الى السلطة يشكل أيضا انتصارا متأخرا لزيف جابوتنسكى جاء بعـد وفاة بن جوريون . أو نوعا من انتقـام الصهيونية الوطنية من الصهيونية الاشتراكية . علمـا بأن بيجين لا يستخدم الفاظا مثل كلمة « انتقـام » .

وهل يمكن أن تجيب هذه العقيدة على تساؤلات المجتمع الاسرائيلى فى أعوام الثمانينات ؟ الا تعد حبيسة لايديولوجيات ظهرت فى نهاية القـرن الماضى وربما تجيب على اسئلة لم يعد أحد يثيرها ؟

وهل تستطيع الشبكات السياسـية التى أقامها ــ بالدم والنار ــ جابوتنسكى وانصاره أن تفك رموز اسرائيل الصناعية والمتقدمة ثقافيا التى آلت الى بيجين ؟ واليس من المحتمل أن يؤدى الطوق العقائدى ــ الذى كان يتحلى به ليكود وهى فى المعارضة الى شل حركتها اليوم وهى فى السلطة؟ وأخيرا ، هل يستطيع بيجين تنفيذ فكرة سياسية جديدة يمكن أن تصمد فى مواجهة صدمة المستقبل ، وتمنح شباب بلاده أسبابا للبناء والأمـل ، والعمل بحيث يكون لجيل الرواد خلفاء جديرون به ؟

والبيجينة هى ، أخيرا ، امكانية التأقلم مع الأوضاع الجديدة وامكانية المباغتة .

من يخلف بيجين :

أن مناحم بيجين ليس له ــ مثل ديجول ــ خليفة . ودون شك ، فانه يجيب حين يطرح عليه هذا السؤال بقوله « لسنا بملكية اننا جمهورية وانا جمهورى بكل كيانى .. بيد أن عقيدتى لن تجد من الناحية العملية ــ من يدافع عنها ، متى أنسحب بيجين من الساحة السياسية .

ويتسم هذا السؤال بأهمية خاصة بسبب الحالة الصحية لرئيس وزراء اسرائيل أن مناحم بيجين ينتمى فى الواقع ، الى هؤلاء « الرجـال المرضى الذين يحكموننا » . فهو مريض بالقلب وقد اضطر ــ منذ انتخابه

لرئاسة الحكومة — الى دخول المستشفى عدة مرات — بل وقد عقدت بعض جلسـات مجلس الوزراء فى مستشفى ابخيلوف فى تل أبيب حيث كان يعـالج .

ويدرك بيجين ان الوقت ليس حليفه .. ويقـول رئيـس الوزراء الاسرائيلى : « لم يعد أمامى سوى بضع سنوات للعمل .. ولقد قلت منذ فترة أنه اذا ما أطال الله فى عمرى وبلغت سن السبعين فسوف أعلن ، فى ذلك اليوم ، انسحابى ليس فقط من البرلمان ولكن من الحياة السياسية بصفة عامة » .

واذا ما توصلنا — خلال السنوات الأربع القادمة — الى تجنب الحرب وبناء منازل لخمسة وأربعين أسرة تعيش الآن فى حالة من البؤس وأيضـا الى النهوض بالاقتصاد وبالوضع الاجتماعى لبلادنا ، سيكون فى وسـعى حينئذ أن أعلن فى هدوء وسكون أنه من الأفضل أن يواصل المهمة رجـل يصغرنى سنا .

ويعتزم مناحم بيجين أن يعيش — بعد أعتزاله الحياة العامة — فى نعوت سيناء وهى ضيعة تقع بالقرب من العريش — مثلما أقام بن جـوريون فى سدى بوكر .

ويقول بيجين : « أرجو أن أتمكن بعد اعتزالى — من تأليف كتاب بعنوان « جيل الابادة والنهضة » ، وهو مؤلف سيضم الفى صفحة على الأقـل ويتكون مما لا يقل عن ثلاثة اجزاء .

« ان جيلى — الذى ولد فى خضم الحرب العالميـة الأولى ، لم يعش ، فى الواقع ، حياة طبيعية الا لمدة عام أو عامين فقط ، لقد عانى من الحرب والآلام والجوع والسجون والمعسكرات والنفى والدموع والدم . انه جيل من أجيال التوراة .

اننى أشعر بنوع من الالتزام تجاهه يحتم على كتابة هذه الصفحات الالفين التى سوف أحكى فيها عن الهبوط الى الجحيم ولكن فى نفس الوقت أيضا عن التحرير والارتقاء الى القمم .

« لقد عانى هذا الجيل أكثر من كل الأجيال التى سبقته فى تاريخ إسرائيل ولا تقل شجاعته عن شجاعة المكابيين .

وأين مكانه فى تاريخ الغد ؟ يقول بيجين : « لقد قلت مرارا لأصدقائى ــ وكررته عشية انتخابات مايو سنة ١٩٧٧ ــ ان المركز الذى سوف يعهد الى مهما بلغ شأنه لن يساوى ، بكل تأكيد ، ما قمت به أنا وزملائى حينما كنا نعمل فى المقاومة وأثناء حرب تحريرنا :

ولقد أصبح مرض رئيس الوزراء منذ البداية مسألة سياسية . وتقوم الطبقة الحاكمة بتحليل تقاريره الصحية ، وفحص قسمات وجهه، كما تدور التعليمات فى ردهات الكنيست وفى كل المنازل لدى ظهور أقل علامة اعياء عليه .

من الذى سيرث التركة ؟ ترى من هو الخليفة المنتظر ؟ ان ثلاث أو أربع شخصيات فقط من بين أعضاء الحكومة ــ التى شكلها مناحم بيجين فى شهر يونيو سنة ١٩٧٧ والتى ــ دعمها فى شهر اكتوبر بوزراء ينتمون الى الحزب الجديد ــ الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ــ داش هى التى يمكن أن تسعى للخلافة أما بقية أعضاء الحكومة فأغلبهم سياسيون متواضعون يفتقرون الى النفوذ السياسى والمعنوى الذى يتسم به الزعماء . وربما يشعر بعضهم بالراحة اذا ما عملوا كمدربين أو موظفين أكثر منهم فى حالة اضطلاعهم بمسئولية وزارية ولم يكن بيجين قد اختارهم لمزايا شخصية أو لذكائهم السياسى ولكن لأنهم مندوبون عن أحزابهم الخاصة . وانهم ليسوا بمرشدين أو زعماء ولكنهم رجال أجهزة وثعالب سياسيون وكما كان يقول معلمه جابوتنسكى : « تذكر تماما أن أى حكومة تتكون من رجال متوسطين وبسطاء ..؟

ويمكن اذن أن ينحصر السباق على الخلافة حين يبدأ بين أربعة رجال لكنهم جنرالات سابقون هم : عزرا وايزمان واريل شارون وايجال يادين وموشى ديان .

ويعد الأول أحد مؤسسى السلاح الجوى الاسرائيلى وكان قائد العمليات خلال حرب الأيام الستة . وكان دائما يتولى منصب رئيس هيئة الأركان ولكن حلمه لم يتحقق أبدا . وفى سنة ١٩٦٩ ترك الجيش ليقتحم ميدان السياسة وكان وزيرا للنقل فى حكومة الوحدة الوطنية التى شكلتها جولدا مائير . وتتسم علاقاته مع مناحم بيجين ــ داخل ليكود ــ بأنها علاقات عاصفة . ان عزرا وايزمان يصمد أمام بيجين . ومع ذلك فقد عهد اليه أثناء الانتخابات بادارة الحملة الانتخابية وقد قام بمهمته على خير وجه .

ويحاول عزرا وايزمان - وزير دفاع مناحم بيجين - تغيير صورته لدى الرأى العام كرجل جذاب من « رجال المظلات » ولكنه يفتقر الى مدى سياسى (على غرار بيجار ولكن على الطريقة الاسرائيلية) . انه المثال للرجل العسكرى التائه فى الحياة المدنية .

ولقد فاجأ - منذ فترة من الوقت - الطبقة السياسية وكاتبى افتتاحيات الصحف فى بلاده مفاجأة سارة . أولا بسبب الكتمان الذى يلتزمه : فهو لا يتكلم الا اذا كان لديه ما يقوله . ثانيا : بسبب ضخامة العمل الذى قام به فى القوات المسلحة الاسرائيلية . ويقول عزرا وايزمان « يجب أن نفكر بالفعل فيما سوف يكون عليه الساحال (الجيش) بعد خمس أو عشر سنوات » .

وهو صاحب عقيدة باتت مشهورة مؤداها أن الدفاع عن تل أبيب يتقرر عند الخط الرأسى المار بالقاهرة ودمشق » .

« أما اريل شارون فانه « المقاتل » . وقد كان قائد الفرقة ١٠١ وهى وحدة خاصة من رجال الكوماندوز لمقاومة هجمات « الفدائيين » وهو الذى قام بالثغرة « المشهورة فى سيناء أثناء حرب كيبور . وكان فى سنة ١٩٧٥ المستشار الخاص المؤقت لاسحاق رابين لشئون الارهاب . وما أن صفق وراءه باب حزب ليكود لكى يؤسس حزبه الجديد شالوموزيون حتى وجد نفسه غداة الانتخابات وقد تقلد منصبين وانضم الى الحكومة الائتلافية برئاسة مناحم بيجين . وأصبح وزيرا للزراعة فى حكومة بيجين وأحد الموافقين الشرسين على اقامة المستوطنات فى الأراضى المحتلة بيد أنه لم يثبت بعد أن ملكاته كرجل سياسى ترمى الى مستوى مواهبه كرجل استراتيجى عسكرى .

ويتبقى ايجال يادين وموشى ديان ، وهما الوحيدان اللذان يمكنهما فى الحقيقة تولى منصب رئيس الوزراء .

ويتولى ايجال يادين منصب رئيس الوزراء ويقوم بمقتضى الدستور بأعمال بيجين بالنيابة فى حالة غيابه . وهو شرط من شروط العقد الذى أبرم بين ليكود والحركة الديمقراطية من أجل التغيير (داش) . ولقد كان لهذا الشرط دخل كبير فى قراره الخاص بالانضمام الى الحكومة وقد اسندت اليه عدة مرات بعض المناصب الحكومية ففى سنة ١٩٦٣ بصفة خاصة ، عرض عليه بن جوريون - الذى كان قد اختاره « خليفة له » منصب رئيس الوزراء ..

بيد أنه فضل – طوال خمسة وعشرين عاما . العمل فى الصحارى واستجواب الأحجار عن التاريخ الماضى . وفى يوم من الأيام ، عرض عليه بن جوريون تولى منصب وزير التعليم الوطنى ورد يادين بقوله : « اننى لم أنته بعد من التنقيب فى حاتزو » .

فسأله بن جوريون قائلا : « هل تريد أن تقول بأن هذه الأعمال تبدو لك أهم من مسلكه التعليم فى اسرائيل » ؟

وأجاب بقوله : « اننى لا أستطيع المقارنة بينهما . ولكننى لا أستطيع النجاح الا اذا أفرغت جهدى كله فى شىء واحد . وأعتقد اننى باحث وان طموحى الوحيد يتمثل فى هذا المجال » .

أما موشى ديان فان له كفاءة رجل الدولة . وهو يحظى الى أبعد مدى بثقة وصداقة رئيس الوزراء . ويحدد ديان السياسة الخارجية بالتنسيق مع بيجين وهو مشهور بتقبله للآراء الجديدة ولكافة المشروعات . كما أنه معروف بسرعة ملهمة وبأنه لا يحتمل الخوض فى أبحاث مطولة .

ومن الممكن أن يكون الخليفة المفضل لولا الريبة التى يثيرها فى بعض صفوف ليكود (وخاصة داخل حيروت ، وحدة مناحم بيجين) . وذلك نظرا لأنه الرجل القادم من الخارج ، انه لا ينتمى أصلا الى الحزب .

ومع ذلك فان كل هذه التكهنات لا تتعدى ، فى الوقت الراهن ، كونها مجرد « سياسة الخيال » . فليس هناك شىء مؤكد . بل ان الأسوأ أيضا ليس مؤكدا . ومع ذلك فمن الواضح أن الأحزاب التى تتولى السلطة فى اسرائيل تعانى من نقص شديد فى عدد رجال السياسة ومن عدم وجود بديل لهؤلاء الرجال .

فهل سيضطلع رجال أمثال يادين أو ديان بمسئولية البيجينية ؟ .

لقد لخص شيمون بيريز – الذى يعرف أحيانا كيف يصقل عباراته – ضخامة تلك المعضلة بقوله : « ان الفرق بين جابوتنسكى وبيجين يتمثل فى أن جابو تنسكى كان له وريث أما بيجين فلا » .

الأمــل

ظهر فى القدس فى سنة ١٩٦٥ كتاب عن السـياسة ـ الخيال وكان عنوان الكتاب يشكل فى حـد ذاته فى ذلك الوقت نوعا من الاثارة « غـداة تولى بيجين الحكم .. » ويصف فيه المؤلف ـ ويدعى بيرويال ! بطريقة ساذجة وصول القادة العرب الى القدس للتوقيع على اتفاقيات سلام وذلك بعد ٢٤ ساعة من قيام اسرائيل بضم الضفة الغربية دون قيد أو شرط ويختتم هذا المؤلف الغامض « كتابه الخيالى » بعبارة لمؤسس الصهيونيـة تيودور هرتزل تقول « اذا اردتم ، فلن يكون ذلك مجرد حلم » .

وبعد اثنى عشر عاما عاش الملايين الثلاثة من المواطنين الاسرائيليين حلما مشابها نسبيا ففى يوم السبت ١٩ نوفمبر سنة ١٩٧٧ ، وبعد انتهاء عطلة السبت المقدس وفى الوقت الذى يذكر فيه الناس فى اغلب البيوت اليهودية وصول المسيح ، يهبط الرئيس انور السادات من طائرة بوينج مصرية على ارض اسرائيل . لقد جاء على حد قوله ليقنـع قادة وشعب اسرائيل انه يرغب بصدق فى السلام . وكان الحدث مثيرا الى درجة أن الاسرائيليين لم يصدقوا أعينهم . ان « زلزالا » حقيقيا اجتاح البلاد ، قويا بنفس الدرجة التى كانت عليها ـ منذ أربع سنوات قوة الزلزال حرب كيبور .

والتقى السادات وبيجين وراحا يتحدثان وجها اوجه فى لقاء هو لقاء العصر ويقول حمـدى فؤاد رئيس قسم الشئون الخارجيـة فى جريدة الاهرام القاهرية « ان ذلك أعظم من هبوط أول رجل على سطح القمر »

ويشعر ملايين الرجال بأن أزمة الشرق الأوسط . المجمدة منذ ثلاثين عاما بسبب « الرفض العربى » ـ تتعرض لتحول حاسم . لقـد أزيل « المحظور » . ولا يقتصر الأمر فقط على أن السادات يتحدث مع القـادة الاسرائيليين ولكن الحواجز تنهار أيضا من كل جانب . لقد تعرض المجتمع الاسرائيلى لأعمق تغيير عرفه منذ نشأة الدولة . وتؤمن الغالبية العظمى بحسن نية الرئيس المصرى . ويصرحون باستعدادهم لتقديم التنازلات الضرورية . ومن المؤكد أن رئيس الوزراء مناحم بيجين لم يتنـازل عن شىء ـ فى حديثه المخيب للآمال فى الكنيست ـ بالنسبة للمطلبين الأساسيين

للرئيس المصرى : الانسحاب من الأراضى التى احتلتها اسرائيل منذ سنة ١٩٦٧ وضرورة اقامة دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وغزة .

هل يظل بيجين متمسكا بنظرياته المتطرفة ، فى مواجهة مبادرات الرئيس المصرى التى تنطوى على حسن النوايا ؟ ترى هل هو اذن أسير الى هذا الحد للاحزاب التى تؤيده والرجال الذين يساندونه ؟ والم تكن رحلة السادات الى القدس جديرة باجراء اعادة نظر شاملة للمبادىء التى تؤمن بها الدبلوماسية الاسرائيلية ؟

لقد انطلقت الألسنة بالحديث بعد مرور عدة أيام على رحلة السادات للقدس . وكان وزير الخارجية موشى ديان أول من أعلن على الناس « ضرورة اجراء تغيير » حينما قال « يجب أن نعد انفسنا لاتخاذ قرارات صعبة . لا يجب أن تضيع البلاد تلك الفرصة التاريخية المعروضة علينا . » ومن المعروف منذ البداية أن هناك تفاهما واتفاقا تاما بين بيجين ووزير خارجيته لدرجة أنه من المؤكد أن تلك الكلمات قد قيلت بناء على موافقة — بل واقتراح — رئيس الحكومة .

ويأتى بعد ذلك رد فعل أكثر الأوساط احساسا بمستقبل أراضى يهودا والسامرة وتتساءل صحيفة « هاتسوفيه » — لسان حال الحزب الدينى الذى يؤيد اقامة المستوطنات عما اذا لم يكن من الضرورى على الحكومة أن تعيد النظر فى بعض المبادىء الأساسية لموقفها » .

ويقول هيوشوابن مائير — أكثر ممثلى الجيل الدينى الشاب شعبية — « نعم هناك مشكلة فلسطينية وبمعونة الله سوف نجد لها حلا . » ويتحدث وزير التعليم الوطنى زيبيلون هامر فى الاذاعة عن ضرورة حل المشكلة الفلسطينية وضرورة أن تؤخذ فى الاعتبار من الآن فصاعدا المعطيات الجديدة التى أسفرت عنها زيارة الرئيس السادات » .

لقد أصبحت الشعوب . فى كلا الجانبين — ناضجة للسلام ويغير كثير من الرجال — هنا وهناك . رأيهم حيثما يرون التاريخ يغير مجراه .

ما الذى يدفع الرئيس المصرى الى أن يفجر — فى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٧ — هذه الضربة السيكولوجية التى غيرت راسا على عقب معطيات

مشكلة الشرق الأوسط ؟ لماذا القيام بمثل هذا الرهان الذى قد يؤدى الى اثارة جزء كبير من العالم العربى وربما الى تعريضه أيضا لنفس النهاية التى تعرض لها فيما مضى الملك عبد الله جد الملك حسين ؟ من المؤكد أن الوضع الاقتصادى فى مصر التى تعانى من أزمات خطيرة يثير قلق الرئيس المصرى . ولكن لماذا انتظر حتى تولى الحكم فى القدس رجل مشهور بتشدده المتطرف وانتخب أساسا بناء على برنامج انتخابى يرفض تقديم أى تنازلات للدول العربية ؟

لقد فكر السادات بجلاء ، منذ فترة طويلة ، فى مختلف النتائج التى قد تسفر عنها مبادرته . وهناك عنصران شجعان بعد تفكير طويل على تنفيذ مشروع هذه الرحلة . أولا : أعطى بيجين وديان وويزمان — منذ فترة طويلة — صورة مميزة للحكومة تتمثل فى أنها تعرف ما تريد . وهناك فرق شاسع بينها وبين الفريق الحاكم السابق .

ومن جانب آخر ، يشعر السادات بأن هناك أكثر من نقطة مشتركة بينه وبين الرجل الذى يتولى — منذ شهر يونيو سنة ١٩٧٧ — الحكم فى اسرائيل . ان السادات . مثل بيجين رجل عملى وعاطفى ويعانى الاثنان من المرض وبالتالى فليس هناك مجال لاضاعة الوقت اذا ما كانا يرغبان فى اقرار النظام فى بلديهما . ويشعر كل منهما بأن مهمته تحمل معنى شبه صوفى هو قيادة شعبيهما الى السلام والتنمية .

وكان جمال عبد الناصر يقول عن السادات : ان قمة طموحه هو الحصول على سيارة تابعة لوظيفته بسائقها وايصالات البنزين الخاصة بها . وكان بن جوريون يتحدث باحتقار عن بيجين بقوله : «ذلك الشخص» .

ومثل السادات فان بيجين رجل وطنى — دينى وهما يوقنان بقيم مشتركة هى : العائلة والتواضع والشرف والأمانة والنزاهة . ولقد بدأ خط سيرهما السياسى نفسه بطريقة متشابهة . فقد الف بيجين كتابا بعنوان « ثورة اسرائيل » . فى حين كان عنوان الكتاب الذى الفه السادات « ثورة على ضفاف النيل » .

وفضلا عن ذلك ، يعرف السادات ان هناك نقطة أخرى مشتركة بينه وبين مناحم بيجين وربما تكون أهم النقط جميعها وهى : رفضه للشيوعية بكافة أشكالها .

لقد خلق الرجلان ليلتقيا


وقد قال الرئيس السادات فى « مذكراته » . « شكرا لله الذى منحنى رأسا يعمل بدقة مثل الساعة المضبوطة . وفى نهاية الأمر ، فاننى ناجح ».

من الذى يمكن أن ينكر أن رحلة أنور السادات الى القدس فى شهر نوفمبر سنة ١٩٧٧ قد حققت نجاحا ؟ فقد حول لصالحه الرأى العام الاسرائيلى وأثبت للجميع حسن نيته الواضحة والزم حكومة اسرائيل بمحاكاته .

فهل من الممكن أن ينجح بيجين بدوره ؟ هل سيكون لديه القدرة على تغيير مجرى الأمور ، وترجمة الأقوال الى أفعـــال ، وتحقيق الامل الرائع الذى انبثق فى اسرائيل يـوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩٧٧ ؟ وكما كتب وزير الخارجية السابق أبا ايبان فان ذلك ممكنا اذا لم تكن قد اختفت الصفات التى تتميز بها اسرائيل من تفاؤل وثبات وابداع وقدرة ثابتة على استعادة نواتها . ويجب على بيجين أن يزيد من الأمل ، وأن يقهر حائط الحقد ، ويخوض المشكلة الشائكة للشعب الفلسطينى بصفة نهائية . ان انتزاع اسرائيل من الدائرة الجهنمية للانتصارات ، واخراجها من عصر ما قبل التاريخ ومن الجيتو الذى تعيش فيه لتجد نفسها فى موقف غنى وجهـا لوجه مع عالم عربى طرأ عليه التغيير : هذه هى المغامرة الجديدة والرهان الجديد لاسرائيل .

ويكفى أن يرغب مناحم بيجين فى القيام بذلك وأن يتبع العالم العربى حديث الرئيس السادات « المتحضر » حتى يدخل رئيس وزراء اسرائيل — وهو ما زال على قيد الحياة — تاريخ شعبه .

لقد أصبح السلام — منذ شهر نوفمبر سنة ١٩٧٧ — احتمـالا يمكن تحقيقه فى الشرق الأوسـط . وقد قال الشـاعر حاييم جورى : « أيها الأصدقاء متى رأينا السلام لآخر مرة ؟ ان هذه الأرض متعطشة له .. فكم من الوقت سوف يمضى ، ولم يبلغ عدد التوابيت التى سنحتاجهـا حتى تنطلق الصرخة : كفى ، كفى ؟ .



جمهورية مصر العربية

الهيئة العامة للاستعلامات

القـــاهرة